روايات عبير الجديدة

فلوراكيد

عيون الحلم

WWW.REWITY.COM
مرمورية

٣٠٠

عيون الحلم ـ فلورا كيد

قد لا ترغب كل فتاة في هذه الأيام، أن تدفن نفسها في وادٍ منعزل هادىء بين هضاب اسكتلندا، تعمل في مزرعة خراف أبيها. ولكن جان ريد أحبت ذلك، ولا ترغب في قضاء عمرها بأي طريقة أخرى. إلى ان وصل غريب الى الوادي المنعزل وقلب تلك الحياة السعيدة رأساً على عقب. من هو هذا الرجل الذي أتى ليعيش في الكوخ المهجور؟

لقد دعى نفسه دونكان دايفدسون ـ ولكن هل هذا هو اسمه الحقيقي؟ لقد قال إنه أسترالي ـ ولكن أليس من المحتمل أن يكون له علاقة بعائلة ماكلاكين التي غادرت الجوار منذ عدة سنوات؟ وهل يعني اهتمامه الواضح بساندرا لانغ أنه انما استقر هناك إلى الأبد؟ وماذا يهم جان من هذا؟.

الفصل الاول

شمس الشتاء، قرص احمر مستدير فوق الافق الازرق الداكن البعيد، شعت لبضع دقائق اخرى. ثم اختفت عن الانظار، وكل ما بقي منها في السماء الغربية الحمراء المضيئة، كان التألق البارد للكوكب.

وطقطق العشب، الجاف القاسي بسبب الجليد، تحت أقدام شابة، أخذت تشق طريقها عبر حقل ظليل. ووصلت إلى حاجز حجري يفصل الحقل عن طريق ضيق ملتف، وتسلقت فوقه ثم بدأت تسير هابطة التل.

من فوق الاغصان المتشابكة للأشجار التي تتجمع معاً بكثافة، استطاعت أن ترى المياه المنحدرة من الجبل تشع بنور غامض. سلسلة من التلال، تنتهي عند لسان من الأرض داخل البحر، يمتد من ورائها بحر يئن كالشبح وهو يعلو وينخفض، ويلقي ظلالاً سود باتجاه السماء. وفوق ارض المستنقع، فرد طير الزقزاق الذهبي أجنحته ببطء وهو يطلق صيحته المليئة بالحزن. وبدا وكأنه يشير الى الحزن الذي يضفيه دوماً نور الغسق على السهول.

كان المنظر وكأنه مسرح يعد لمسرحية رومانسية من القرون الوسطى. هكذا أخذت جان ريد تفكر وقد أطلقت العنان لخيالها. في مثل هذا الوقت من النهار، عندما تملأ ظلال الشتاء الرقيقة الزرقاء ارض الوادي، كانت تتصور انها بانتظار سيدات وفرسان قصة فروسية ما،

يتقدمون من بين العتمة المتكاثفة، ويمثلون دراما الحب والعاطفة. ومن المحتمل أن يكونوا اعضاء من أسرتين كانتا في الزمن الماضي تتنازعان حول ملكية ذلك الوادي، حسب ما كان يروى من اساطير حول الامر.

وابتسمت لتخيلاتها، وتوقفت، ورفعت رأسها الى جانب واحد وأخذت تصغي. اذناها المدربتين في الريف، سمعتا صوت أقدام شخص ما يصعد التلة، شخص ما يسير متمايلاً متباهياً، لا يعوقه الانحدار العميق، ويصفر لحناً مألوفاً وعذباً.

من هو القادم في مثل هذا الوقت من النهار، بينما كل السكان المحليين هم الآن داخل بيوتهم يتناولون وجبة المساء؟ وحده من يريد زيارة «تيغانكوراش»، منزل آل ريد، يمكن له ان يأتي بهذا الاتجاه، لأن وراء المنزل لا يوجد أي مبنى، ما عدا مزرعة مهجورة تدعى «تيغ اوسدين» فيها كوخ عتيق لا يزال ثابتاً في الأرض عند سفح الجبل ونهاية الوادي.

بعد هبوط الشمس، أصبح الهواء بارداً. وارتجفت جان قليلاً وتحركت الى الامام هابطة التل تنوي ملاقاة من هو قادم صعوداً عند نهاية الممر الذي يقود الى منزلها. ولكن الشخص الذي يصفر كان أقرب مما توقعته، ورأت شكلاً طويلاً قاتماً يميل الى الامام تحت ثقل صرة يحملها على ظهره. وكان قد تجاوز الممر وهو يتابع سيره.

أين يمكن أن يكون هذا السائر الوحيد ذاهباً في هذا الوقت من تلك الليلة الشتائية في مروج اسكتلندا؟

وارتجفت جان ثانية، وهذه المرة ليس من البرد. فالشخص القادم نحوها بدا ضخماً في نور الشفق. هل هو حقيقي أم انها كانت تعاني من التخيلات؟ التخيلات لم تكن غريبة الظهور على طريق موحش خلال الشفق المعتم، واعطى ذلك على الدوام شعبية للأساطير والخرافات التي كانت تروى باستمرار في السهريات حول الجنيات والناس القدماء.

هناك طريقة واحدة لمعرفة إذا كان السائر حقيقي أم عملاق خيالي اخترعته مخيلتها، سوف تتحدث اليه، وقالت له:

- مساء الخير. . هل انت قادم من بعيد؟

وتوقف السائر فجأة، وارتفع رأسه، في نور الغروب المعتم كان مستحيلاً على جان ان تشاهد تفاصيل مظهره. كل ما كان امامها انطباع عن ارتفاعه، وعن وجه اسمر نحيل تلتمع عيناه وهو يحدق بها بحذر وأجابها «من بعيد بما فيه الكفاية». رنة صوته كانت عميقة ومرحة. ومال إلى الامام قليلاً ليحدق بها عن قرب وتابع «أتمنى أن تكوني حقيقية ولست واحدة من الاشباح القديمة التي سمعت عنها والتي يفترض أنها تجوب الريف عند الغروب».

وضحكت جان، مستجيبة للمرح الذي بدا في صوته. وبهذه الضحكة عادت اليها طمأنينتها.

- اوه. . لقد كنت أفكر بنفس الافكار حولك، والفارق أنني ظننتك عملاقاً. لا يأتي علي هذا الطريق الكثير من الناس خلال الليل الذين يمرون من ذلك المنعطف. فهذه الطريق لا تقود إلى أي مكان.

- لا تقود إلى أي مكان؟ ولكن قيل لي في حانة القرية، أن أجيء على هذه الطريق إذا أردت أن أصل الى الكوخ الفارغ على سفح الجبل.

- هل تعني تيغ أوسدين؟ وشعرت بالرجفة تعاودها. منذ سبعين سنة والناس يعتقدون أن الكوخ مسكون بالارواح.

- أجل، هذا ما اعني. هل للاسم معنى بالانكليزية؟

- إنه يعني «منزل هوغ» لقد كان يملكه شخص اسمه «هوغ» وقد هاجر منذ سنوات طوال.

- سمعت هذا ايضاً. هل تسكنين قريباً من هنا؟

ولأول مرة لاحظت لكنة غريبة في صوته، فأجابته:

- أسكن في «تيغانكوراش» منزل الاغنام، هناك حيث ترى الاضواء تلمع.

ـ غنم!

وبرز في صوت الغريب رنة ازدراء معينة، وكأنه لا يحب الغنم.

ـ أجل، عائلتي تربي الغنم منذ زمن طويل. فلدينا مئتي فدان من المراعي، وألف فدان تقريباً من السفوح الجبلية المليئة بالعشب.

ولم تستطع جان منع لهجة الفخر في صوتها. وقال الغريب بلهجة ساخرة: «يا لها من مزرعه».

وشعرت جان بموجة غير عادية من العداء تتصاعد في داخلها. من هذا الغريب، ليسخر من مزرعة ريد؟ وأجابته بجرأة: «إنها مزرعة كبيرة جداً بالنسبة لهذه المنطقة».

ـ ليست كذلك بالنسبة لي. يجب أن أذهب في طريقي. كنت آمل الوصول إلى الكوخ قبل الظلام.

ـ انت لن تقضي الليلة هناك بالطبع؟

ـ أجل.. سأقضي الليلة هناك.

ـ ولكن المكان مهجور تقريباً.. ليس له سقف والجدران متداعية، والعشب والشوك ينمو من خلال الارضية. لا يمكن السكن فيه. وليس فيه سوى طاولة قديمة.

وصمت لبضع دقائق، اعتقدت انه فقد اهتمامه لأنها أعطته هذه المعلومات. وقالت له وكأنها تحثه:

ـ الأفضل لك أن تعود الى القرية وتنام الليلة في الفندق. وعد في الصباح لتتفقد الكوخ.

ـ شكراً لك على هذه النصيحة. إنها ليست الأولى التي قدمت إليّ هذه الليلة، ولكن الفنادق هي لمن يستطيع تحمل دفع المال، وانا لا استطيع، سأنام في «تيغ أوسدين».

ـ ولكن كيف؟ وعلى ماذا ستنام؟ إن الطقس الآن شديد البرودة وسيزداد الصقيع أكثر. إذا كنت لا تستطيع البقاء في الفندق، فأنا متأكدة أن والدتي لن تمانع في إعطائك فراشاً لهذه الليلة.

ـ لا..

رفضه كان باتاً، وفظاً تقريباً، وقد املته عليه الكرامة على الأرجح، واضاف:

ـ سأكون بخير، شكراً لك على هذا العرض. فأنا معتاد على خشونة العيش. ولن ابرد، وإذا بردت فسأوقد النار. تصبحين على خير.

ومشى باختيال مبتعداً. وانتظرت جان لفترة، ويديها في جيوب سترتها، تستمع الى صوت صدى خطواته، وتحاول تذكر اسم اللحن الذي يصفره.

وفجأة استدارت وبدأت الركض نزولاً، وقد هاجمها الخوف مرة اخرى من ان مخيلتها هي التي صورت لها الغريب. وعلى طول الممر اسرعت راكضة نحو الضوء المنبعث من نافذة مطبخ المنزل، وهي تحس بأن الارض صلبة كالحديد تحت قدميها. ولم تتوقف حتى وصلت الباب الخلفي للمنزل المبني من الحجر. ورمت نفسها على الباب وفتحته ودخلت إلى الرواق الخلفي حيث وقفت تسترد انفاسها.

وفتحت الباب الداخلي للرواق ودخلت الى دفء ونور المطبخ الكبير. وجاءها صوت امها ينادي من مكان ما في البيت «هل هذا أنت يا جان؟» قرب المدفأة كانت تجلس امرأة مسنة استدارت لتنظر الى جان وقالت لها بصوت ناعم «لقد تأخرت يا عزيزتي».

ـ أعلم هذا يا جدتي، لقد التقيت غريباً على الطريق..

وتقدمت نحو النار وهي تمد يديها الباردتين نحو الدفء. وهزت العجوز رأسها واخذت تهز الكرسي الهزاز حيث تجلس إلى الوراء وإلى الامام. وأخذت جان تردد بعض المقاطع من اللحن الذي سمعت الغريب يصفره. كانت تتمتع بحاسة سمع جيدة، وصفيرها كان قوياً وحقيقياً مثل صوت الشحرور. صوت اللحن جعل امها، شينا ريد، تقف عند باب المطبخ ورأسها مائل إلى جهة واحدة وعيناها البنيتان قد توسعتا باهتمام وقالت:

ـ ما هذا اللحن الذي تصفرينه؟ إنه لحن والتزنغ ماتيدلدا.

وتقدمت نحو الموقد وأخذت ملعقة خشبية وبدأت تغرف لحم الغنم الذي كان يغلي فوق النار وتابعت:

ـ لم اسمع هذا اللحن منذ زمن بعيد. لقد كان لابيك صديق، استرالي زارنا مرة، كانا في الجيش معاً. وكان معتاداً على غناء هذا اللحن.

وصاحت جان «كان علي أن أُميزَه بنفسي. لا بد أنه من اوستراليا وهذا ما جعله يهزأ من حجم مزرعتنا. فلديهم مزارع غنم واسعة هناك أليس كذلك؟» وقالت العجوز الجالسة قرب النار، وقد اصبحت عيناها بعيدتان وحالمتان:

ـ اوستراليا.. لقد سمعت دايفي يقول إنه ذاهب إلى هناك. وقال لجدك: سيكون لنا مزرعتنا الخاصة هناك، وستكون أكبر وأفضل من مزرعتك، ولن تعود إلى هنا أبداً.. وركض مبتعداً والدموع في عينيه لأنه لم يكن يريد ان يترك هذا الوادي.

وبدر السؤال عن شينا وجان معاً، وقد شد اهتمامهما ما قالته العجوز.

ـ من هو دايفي؟

وقال جون ريد، بعد أن دخل الغرفة:

ـ إنها تتحدث عن دايفي ماكلاكن، ابن هوغ ماكلاكن الذي كان يعيش في تيخ أوسدين.

وتقدم من والدته، وساعدها على النهوض من مقعدها، وقادها إلى مكانها على طاولة الطعام قبل ان يجلس في مكانه، وقالت شينا:

ـ اعتقد انك قلت لي إن سمكرياً كان يسكن هناك.

ـ هوغ ماكلاكن كان سمكرياً عندما أتى إلى الوادي.

وقالت جان وهي تجلس في مقعدها:

ـ ولكن السمكري عادة لا يستقر في بيت، فهم دائماً يرتحلون.

ـ هذا صحيح.. صحيح. فهم متنقلون دائماً. يسافرون من مكان

الى مكان ويقومون باعمال غريبة. عادة يحملون اسماء من أصل كبير ويرجعون نسبهم الى زعماء القبائل القديمة.

ـ إذا كان هوغ ماكلاكن سمكرياً فكيف اقتنى مزرعة؟

ـ هذه قصة ستخبرك إياها جدتك أفضل مني.

وقالت الجدة آغنس:

ـ أجل، استطيع هذا، لأنني أتذكر هوغ ماكلاكن، شعره اسود وعينان سوداوان. لقد كان شاباً وسيماً وله لسان من فضة. ما كان عليه سوى ان يرفع اصبعه حتى تركض النساء من حوله. ولكنهن لم يكن مناسبات له. فقد كان يملك الفخر وكرم النسب. لقد حلم دوماً بإعادة مجد ماكلاكن الى قصر دونمور.

وسألتها جان «وكيف كان ينوي فعل هذا؟».

ـ لقد سعى لخطف ابنة مالكه الوحيدة، وأخذها الى غلاسكو حيث تزوجها هناك. وعندما عادا تبرأ منها والدها، وهكذا سافرا. وبعد بضع سنوات عاد هوغ ثانية، بعد ان ماتت زوجته وهي تلد ابنهما الثاني الذي اسماه دايفي. وتركه صاحب الارض العجوز يستأجر المزرعة ويعيش هناك.

ـ ولماذا سافروا إلى اوستراليا..؟

وقال جون:

ـ لأسباب عادية. لم يستطع هوغ أن يكسب رزقه من المزرعة وكانت تتملكه عادة التجول. كان غالباً على خلاف مع جدي، الذي قال لي إنه قبض مرة عليه وهو يسرق خروفاً.

وتنهدت الجدة أغنس قائلة:

ـ لقد افتقدنا دايفي عندما سافر. لم يكن أحد مثله يعرف اين يجد أول زهور الربيع، وأين يبحث عن بيوض النورس، ولقد كان بارعاً في اصطياد سمك الترويت.

وقال جون:

ـ وكان بارعاً في طهيها ايضاً. وبارعاً في سرد القصص مثل ابيه.

ـ لم يكن ابداً مثل ابيه. لقد أحب الوادي، وكان يبكي يوم السفر. كان فتى محبوباً، وأحبه الجميع حتى مالك القصر العجوز، لأن له عينا أمه الزرقاوين.

وقالت شينا «يبدو لي أن اوستراليا كانت موافقة لآل ماكلاكن لو انهم وصلوا الى هناك. من هو الذي سمعتيه يصفر ذلك اللحن يا جان؟».

ـ إنه غريب. قال إنه ذاهب لقضاء ليلته في «تيغ أوسدين» ولقد حذرته من هذا، ودعوته لقضاء الليلة هنا ولكنه رفض. لقد قالت جدتي إنها رأته قادماً. ماذا تظنين يا جدتي؟

وقالت شينا «ربما تستطيع إخبارنا لماذا اتى إلى هنا».

وهزت أغنس رأسها من جانب إلى جانب.

ـ لا أستطيع أن أقول لماذا، إنه أمر غامض.

وقالت شينا، التي لم تكن تؤمن بنظرة حماتها المتنبئة:

ـ لا بد أنه واحد من المتسلقين في طريقه لتسلق قمة «بن ديرك» لقد قالت لي كريس إن مجموعة منهم موجودة في الفندق الآن. آمل ان لا يكون لقاء ذلك الغريب قد أنساك عد الخراف اليوم يا جان؟

وهزت جان رأسها وأعطت أمها عدد الخراف التي عدتها عند التلة بعد ظهر ذلك اليوم. كانت تعدّهم كل يومين أو ثلاثة طوال أيام الشتاء، إذ على الرغم من نزولهم إلى الحقول قرب المنزل للرعي، إلا أنهم لا يأتون جميعاً، وهكذا يبدأ البحث عن المفقودين. عدة مرات في الأيام المثلجة الشديدة البرودة كانت جان تذهب مع والدها والكلاب للبحث عن الخراف المفقودة، وهما يكافحان الرياح الشمالية الغربية اثناء البحث في الجبال. وقالت شينا:

ـ هذا جيد، فالعدد صحيح ويعني أننا نستطيع الذهاب للتدرب على الغناء وبالنا مرتاح.

جان، كانت تغني مع الفرقة، وقد بدأت ذلك قبل ستة أشهر، ولكنها أصبحت عضواً منحمساً فيها. وعندما انتهى التدريب، اقبل

كولين ماتيسون، ابن الجراح المحلي، وهو طبيب أيضاً عبر الغرفة للتحدث إلى جان. لم يكن قد مضى عليه زمن منذ عاد إلى الوادي بعد دراسة الطب في ادنبره، وهو يمضي بعض الوقت في العمل في الريف لاكتساب الخبرة.

وكالعادة سرّت جان لرؤيته، فقد كانت تعرفه منذ سنوات عديدة لأنه صديق مقرب من شقيقتها ايلين. وقال لها:

ـ لقد كنت في مزرعة دونمور اليوم، وقال لي اندرو فوريس إن بعض خرافكم دخل الى الغابة في املاكهم. وقال إن السياج محطم هناك، ارجو أن تقولي لوالدك يا جان.

ـ أجل.. سافعل. نحن نعاني المتاعب في عمل كل شيء بنفسنا، فمنذ أن أذى «هايمش» ظهره لم يعد لدينا من يعمل تلك الاشياء الخاصة في المزرعة. ألا تعرف احداً يبحث عن عمل يا كولين؟

ـ ليس هذا النوع من العمل، الجميع هنا مشغول دون أن يعمل بهذه الأعمال الغريبة. المشكلة في منع الهجرة إلى المدن، ألم تندمي لعودتك إلى هنا يا جان؟

ـ أبداً، أحب هذا المكان، وأنت؟

ـ لا أفكر بأي مكان أفضل. ولكن ربما عليك الابتعاد عن هذا المكان كي تقدريه حق قدره.

ـ يقال ان مالكي دونمور كان في نيتهم على الدوام استملاك الوادي لانفسهم في القرن الماضي كانت عائلة دونكان التي كانت تملك الأرض يومها، تنوي تنظيف الأرض من الناس والشجر لتملأها بالخراف. بينما مالكوها اليوم عائلة لانغ يحبون الشجر لا الخراف ولا الناس أيضاً.

ـ كنت أظن أن ابنتهم ساندرا كانت تنوي الزواج.

ـ كانت.. إنها تعيش الآن في القصر لفترة قادمة، لقد شاهدتها وأنا أزور السيدة لانغ. ونظرت إليّ من طرف أنفها كالعادة.

كريستينا، المعروفة لدى عائلتها باسم كريس، كانت ابنة شينا الكبرى، ولها نفس شعر أمها الاسود وكذلك عينيها. وبعد دراستها

العلوم، وتدريسها لهذه المادة لعدة سنوات، تزوجت غوردن هوات، الذي درس الأعمال الفندقية، ومعاً توليا أمر إدارة فندق غلن ديرك، وحوّلا الفندق الريفي إلى مركز شعبي لصيادي السمك ومتسلقي الجبال ودخلت شينا وجان الفندق وجلستا في مقعدين من مقاعده المريحة. وكانت كريس تتحدث هي وزوجها مع وكيل أراضي دونمور اندرو فوربس. الذي بادر جان عندما رآها قائلاً:

ـ لا بد انك لم تقتربي من حدود أرضنا في المدة الأخيرة، وإلا لكنت لاحظت أن السياج محطم قرب المشتل الجديد.

ـ آسفة يا اندرو. ولكن ليس عندنا عمال في المزرعة بعد أن دخل هايمش إلى المستشفى. لقد اخبرني كولين عن السياج وسأقول لوالدي عندما أعود إلى المنزل.

والتفتت إلى اختها قائلة «سأساعدك في وضع الشاي يا كريس» وخرجت لتتبعها خارج الغرفة، وتمتمت قائلة:

ـ أشعر دوماً أن اندرو لا يطيقني

وأجابتها كريس «وأنا اشعر بنفس الشيء، وايلين كذلك»

ـ ولماذا؟ ألديك فكرة؟

ـ انه لا يحب النساء المستقلات. إنه عتيق الطراز بآرائه. ويظن أن مكان المرأة في البيت لتحضن اطفالها، وتحضر الطعام لزوجها. ولا يظن أننا قادرات على فعل اي شيء آخر. وأعتقد أنه لا يحب أن ترعي الخراف لأنه هذا عمل الرجل.

ـ ما هذه السخافة، الراعيات، وزوجات اصحاب مزارع الخراف، كن يرعين الخراف منذ أجيال، ومع ذلك يحضنّ أطفالهن، ويحضّرن طعام أزواجهن. أظن أنه لا يوافق على تصرفاتهن المتحررة، لذا فهو دائم الخلاف مع ايلين عندما يلتقيان.

ـ اعتقد هذا..

ـ هل تقدم بطلب يدها؟

ـ مرتين حسب ما أعلم، آخرمرة عند رأس السنة ورفضت.

تصوري ايلين وهي تتخلى عن مستقبلها العلمي لتعيش مع وكيل ممتلكات! لقد قالت بنفسها إن هذا يشبه الدفن وهي حية.

ـ يبدو أن لديك الكثير من متسلقي الجبال. هل طلب منك أحدهم أن تدليه على تيغ اوسدين؟

ـ لا.. ولكن كان هناك غريب يسأل. كان شاباً طويلاً يحمل صرة على ظهره، ثيابه رثة كذلك الصرة وبحاجة إلى حلاقة. هل شاهدتيه؟

ـ التقيته وانا قادمة من التل. عندما سألك ماذا قال لك بالضبط؟

ـ لا أذكر تماماً. سأل عن مزرعة خالية عند سفح الجبل، وليس هناك غيرها في هذه النواحي. لم أنت مهتمة هكذا؟

ـ لا أظن انك سألتيه عن اسمه او من اين أتى؟

ـ لا.. لم استطع كان من النوع الذي لا يمكن سؤاله.

ـ ولماذا؟

ـ لا اعلم.. ربما بسبب الطريقة التي ينظر بها اليّ.. ببرود.

ـ ما لون عينيه؟

ـ انت اسوأ من تحري بهذه الاسئلة. لماذا تريدين ان تعرفي؟

ـ لقد قالت جدتي إنها رأته وأن شعره أسود وعيناه زرقاوان.. ستسر جداً إذا قلت لها إنها على حق. هل هي على حق يا كريس؟

ـ اجل إنها على حق. عيناه زرقاوان، أكثر زرقة مما شاهدت في حياتي هل هناك اسئلة أخرى؟

ـ لا، أتساءل فقط من هو ولماذا أتى إلى هنا.

في اليوم التالي تغيّر الطقس. وانتشرت الغيوم الداكنة في السماء، وبدأت الريح تصفر خلال الأشجار والبراري. وقال جون ريد لابنته جان وهما يسيران نحو المنزل بعد الظهر:

ـ يبدو أن الثلج سيسقط. وهذا آخر الشتاء كما آمل، ثم نستطيع انتظار الربيع.

وكان تنبؤه مصيباً. فاسودت السماء أكثر، وتكثفت الغيوم وأخفت

الجبال عن الأنظار، بعدها بقليل بدأت أولى ندف الثلج البيضاء تسقط، وأخذت تتسارع، لتغطي الأرض.

واستمر الثلج يتساقط طوال الليل، ومعظم اليوم التالي، وكانت اسوأ عاصفة منذ عشر سنوات، كما أعلن مذيع الأخبار على التلفزيون، قبل أن ينقطع التيار الكهربائي فجأة.

وتمتم جون «لا بد أن الاسلاك انقطعت في مكان ما.. سأضيء القناديل والشموع».

وبما أن انقطاع الكهرباء أمر عادي فإن شينا كانت تحتفظ بقناديل الكاز نظيفة وجاهزة للاستخدام. وأعطى نورها الأصفر جواً للمطبخ وكأنه من عصر آخر.

وقالت اغنس:

ـ على ضوء قناديل الكاز والشموع تبدو التعقيدات العصرية ألطف.

وقالت شينا بطريقتها الحادة:

ـ من ناحية أخرى، نحن وجهاً لوجه مع حقائق الحياة فالأبقار لا تحلب نفسها، وإذا لم يعد التيار عند الصباح سنجد نفسنا مضطرين إلى الاستيقاظ باكراً يا جان، لحلب الأبقار. فالآلات لا تعمل دون كهرباء.

ـ لا مانع عندي.. متى وصلت الكهرباء أول مرة إلى الوادي يا جدتي؟

ـ لقد دبر وصولها مالك الاراضي القديم جيلبرت دونكان، ولكنه مات قبل اتمام المشروع.. لقد كان عجوزاً حزيناً، ذهب إلى قبره دون وريث.

ـ ولماذا لم يكن له وريث؟

ـ لقد كان لديه واحد، أو أنه ظن أن لديه. فقد سامح ابنته لهربها مع هوغ ماكلاكن وترك كل شيء لدايفي، حفيده. ولكن المحامين لم يجدوا دايفي، وهكذا ذهبت الاملاك إلى ابن شقيقة هوغ، كاميرون لانغ.

ـ وماذا يحدث لو عاد أحد أبناء دايفي أو أحفاده إلى هنا؟ هل بامكانهم المطالبة بالاملاك؟

وقال جون:

ـ اشك في هذا، اترين.. الإرث خصص لدايفي وليس لهم.

وتنهدت الجدة وقالت:

ـ لقد جرى التفتيش عنه باقصى جهد ممكن، ولكن لم يجده أحد.

على الرغم من جدية العمل في اليوم التالي، فقد تمتعت جان بالخروج في الهواء الرطب المشمس. وتمتعت بأن تكون أول من يطأ بقدمه على الثلج لتسمعه ينسحق تحت حذائها وتوقفت عدة مرات لتتسلق المرتفعات وتنظر الى الوادي معجبة بالثلج والمنظر الرائع الذي يضفيه.

وما ان حل بعد الظهر حتى كانت جمعت كل الخراف ما عدا واحداً. وقال لها والدها «هناك مكان واحد لم نفتش فيه، الأرض حول «تيغ أوسدين»، اذهبي وفتشي هناك بينما آخذ هذين الخروفين إلى المزرعة. انتبهي، سأترك معك الكلب».

وبالرغم من شعورها بالتعب وتجمد رجليها من البرد، فقد مضت جان باتجاه الحاجز الحجري الذي يفصل الارض العائدة للمزرعة الأخرى عن مزرعة ريد ووجدت جان طريقها عبر البوابة المغطاة بالثلج، ثم وقفت تفتش الارض من حولها. في وسط الحقل كان يوجد كوخ، وإلى جانب جداره الغربي مبنى أصغر حيث كانت الحيوانات توضع في الزمن القديم، أقسام كثيرة من السقف كانت مفقودة، مدخنة واحدة كانت لا تزال واقفة. أما الأخرى فقد انهارت.

هل هذا محض خيال أم انها فعلاً ترى عموداً خفيفاً من الدخان يتصاعد من المدخنة؟ وتحركت جان خلف كلب الحراسة، وكان الثلج عميقاً قرب الجدار، فابتعدت عنه وأخذ الكلب يشمشم بحثاً عن رائحة الخروف. كان الطريق طويلاً واستغرق الالتفاف حول الجدار وقتاً. وهبطت الشمس أكثر واصبحت الظلال أطول. وتدريجياً اقتربت أكثر من الكوخ. مدخله ليس له باب، وبما أنها يجب أن لا تترك مكاناً

دون تفتيش، فقد دخلت بحذر الى داخل المكان المظلم.

ونبح فلاش منذراً، ثم بدأ يزمجر مهدداً. وفتح باب من الداخل ليظهر من خلاله رجل طويل عريض الكتفين شعره أسود مسترسل يحتاج الى تشذيب، وعيناه زرقاوان لامعتان، واخذ ينظر اليها.

ونبح فلاش مرة اخرى مهدداً. ودعت جان الكلب ليهدأ، وسألها الرجل «هل تبحثين عن شيء؟» وفي الحال عرفت جان صوت الغريب الذي التقته على الطريق منذ ثلاثة ايام. وبقدوم الثلج نسيته. ودهشت لأنه لا يزال هنا.

ـ لقد افتقدنا احدى النعاج. فتشت عنها في الحقل وفي المخزن. أنت ما زلت هنا إذاً؟

ـ أجل.. لقد التقيتك على الطريق تلك الليلة، أليس كذلك؟ أنت من المزرعة. انت مختلفة عما توقعت.

وكان هو مختلفاً عما توقعته أيضاً. في أوائل الثلاثين من عمره، واثق من نفسه، مما جعلها تشعر كأنها الغريبة في ذلك الوادي وهو من عاش كل عمره هناك. فقالت له:

ـ ماذا توقعت؟

ـ شخصاً أكبر في السن، زوجة مزارع سمينة. ولكنني أجد فتاة يافعة، حمراء الوجه واسعة العينين، ومعها عصا الراعي وكلب الراعي.

ـ أنا جان زيد.

ومدت يدها اليه بطريقتها الودية الصريحة العادية. ونظر الى يدها، وبعد تردد أخذ يدها في يده. وكانت راحة يده خشنة، وعلمت أنه كان يعمل أعمالاً قاسية مؤخراً، مما أدهشها لأنه لا يبدو عليه أنه شخص مضطر للعمل لكسب معيشته. وقال:

ـ اسمي دونكان.

وانتظرت جان أن يضيف اسماً آخراً. ولكنه لم يفعل. وترك يدها، ووضع يداه في جيوب بنطلونه سعياً للدفء. وقال:

ـ لم أشاهد نعجتكم. هل تحبين أن أساعدك في التفتيش؟ ودهشت قليلاً لعرضه. ولم تتردد في قبوله:

ـ تستطيع المجيء معي إذا أردت. لقد أمضيت طوال النهار في التلال ولقد وجدت أنا ووالدي كل الخراف الضائعة ما عدا هذه. وقد ظن والدي أنها قد تكون هنا. فالقطيع عادة يرعى هنا.

ـ لا أظن ذلك. انتظري لحظة، سأحضر سترتي وأغير حذائي. وعندما ظهر تعجبت من طراز ثيابه فقال لها مفسراً:

ـ آخر مكان عملت فيه كان في كندا وهذه ثياب عمل معروفة هناك.

ـ اوه.. لقد ظننت أنك آت من اوستراليا.

ـ وما الذي جعلك تظنين هذا؟

ـ كنت تصفر لحن «والتزنغ ماتيلدا».

ـ ولمَ لا أصفّره.. إنه لحن جميل. سوف نفترق هنا سأفتش الأرض التي إلى الشرق وأنت إلى الغرب، وسنلتقي عند الجدار.

أعطاها الأوامر بطريقة صارمة، وتركها ومشى. ورمشت عيناها للطريقة التي تولى بها أمر التفتيش، وسارت في الطريق المعاكس له. بعد ساعة، وكانت الشمس بدأت تغيب خلف التلال السوداء، التقيا عند حدود الجدار وسألها دونكان «هل حالفك الحظ؟»

ـ لا، أشكرك على مساعدتك.

ـ أهلاً بك... هذه الجدران تبدو عظيمة، كل واحد من هذه الاحجار لا بد أنه حمل ووضع في مكانه من مكان بعيد على يد الإنسان، مما يجعلك تدركين أن بناءها كان عملاً يوازي بناء الاهرامات. ومع ذلك لم أسمع أي شخص يذكر هذا بأنه من عجائب الدنيا... كما انني لم أقابل راعية غنم من قبل.

ـ إنها ليست مهنة غريبة لامرأة. معظم زوجات القرعيان يساعدن في توليد النعاج، تعقيمها من الجراثيم وجز الصوف. ويراقبن الزريبة قرب

المزرعة حيث يحتفظ بالحملان الصغار. ويساعدن في التلقيح والعدّ، لذا تستطيع القول إنهن راعيات غنم أيضاً.

ـ وهل يتبع العديد من بناتهن سيرتهن في هذه الايام التي فيها العديد من أوجه العمل؟

ـ إذا كان لديهن التفكير السليم. الحياة هنا في الوادي فيها مرح أكثر من المدينة.

ـ انت تدهشيني.. هل ندخل إلى الكوخ؟ الطقس لا يطاق هنا. انت تبدين بردانة. هل تدخلين لتناول كوب من الشاي، فقد يدفئك هذا؟

ـ أجل أرجوك.

ـ أرجو ان لا تمانعي في ان تتناولي الشاي من ابريق معدني، فأنا لا أملك ابريق شاي.

ونبعته جان إلى الغرفة التي يضيئها النور المنبعث من النار، والتي يعبق فيها رائحة الدخان، وقفز فلاش وراءها وجلس على الأرض في الزاوية، واقفل دونكان الباب، وذهب رأساً إلى النار وحركها بقطعة حطب لتتوهج أكثر وتنير الغرفة. ووضع وعاء على النار، وسار نحو الطاولة القديمة وأشعل عود كبريت، وأضاء شمعة أضاءت الغرفة بنورها الأصفر، واستقام، ثم نظر الى جان وهو يبتسم.

ـ أهلاً بك في بيتي المتواضع، لم أستطع بعد أن أفعل به الكثير، فلم يساعدني الطقس كثيراً.

ـ ولكنه ليس لك.

ـ طالما أدفع إيجاره فهو لي، هذا ما اتفقت عليه مع الوكيل. فقد قال إنه سيكون مسروراً إذا عاش أحد هنا وعمل في المزرعة، ماذا كنت تظنين؟ أنني متسكع، آسف لأنني خيبت ظنك، لقد قدمت إلى هنا بكل شرف.

ـ لم أكن أفكر بهذا، لقد دهشت فقط، أترى، غنمنا كان يرعى هنا منذ سنوات ولم يعترض أحد من المالكين.

وهكذا أصبحت لديك هواية أن تظنيها لكم. أظن أن هذه هي الطريقة التي وسعتم بها مزرعتكم، بالاستيلاء على مزارع صغيرة غير مرغوبة.

الفظاظة في صوته جعلت الأمر يبدو وكأن عائلة ريد كانت ترتكب جريمة شائنة مما جعل كبرياء جان يتصاعد.

ـ هذا صحيح، ولكن فقط عندما تكون هذه المزارع مهجورة لمدة طويلة ولا يعود جيل جديد ليرعاها، فمن الأفضل أن تستخدم الأرض بدل تركها دون أن تنتج.

ـ دعينا لا نتخاصم قبل شرب الشاي.

وجلست على مقعد قديم، وأخذت تراقبه وهو يصنع الشاي. وقدم لها فنجاناً وأخذ هو آخر وبدأ بتحريك السكر. وسألها:

ـ هل يوجد أي عمل هنا أستطيع القيام به؟

ـ ما نوع الأعمال التي تستطيع القيام بها؟

ـ أي شيء. لقد عملت مؤخراً في البناء، وقبلها في تقطيع الأشجار، وقبلها في جمع الثمار، وقبلها في البيرو...

ـ وقبلها كنت في اوستراليا. انت من اوستراليا، أليس كذلك؟

وامتد الصمت بضع دقائق، وبدا لها أنه يدرس رده بدقة قبل أن يقوله. وارتشف شيئاً من الشاي، وحدق في النار ثم قال:

ـ هل هذا واضح عليّ؟

ـ عليك أن تعترف أنك لا تتكلم مثل الاسكتلنديين.

ـ أنت دقيقة كالابرة. حسناً يا فتاة، لقد ربحت. لقد ولدت في اوستراليا وتربيت هناك، ولكنني لم أقم هناك منذ سنوات.

ـ ماذا كنت تفعل إذاً؟

ـ يمكنني القول أنني كنت قادماً الى هنا.

ـ ولم استغرقك القدوم إلى هنا كل هذه السنوات؟

ـ إنها مسافة بعيدة، وكان عليّ أن آكل في الطريق، لذا عملت عندما وجدت عملاً. وبعض الاحيان كان يحصل لي شيء يضطرني

للبقاء طويلاً. في مكان ما تأخرت حتى أنني فكرت بالزواج. ثم تذكرت وعدي، وأدركت أنني لو تزوجت فلن أصل أبداً إلى اسكوتلندا. وأرعبني أن أخسر حريتي لذا اسرعت بالهرب.

ـ ولكن الزواج ليس سجناً:

ـ وكيف تعرفين؟ هل جربت الزواج؟

ـ لا... لا... لماذا تركت اوستراليا؟ ولماذا اخترت القدوم إلى اسكتلندا؟

ـ ولماذا لا؟ لقد اعتبرت دائماً أن أصلي من هنا، لذا فكرت بأن آتي لأرى المكان. وسمعت كثيراً عن المزارع والزراعة، وعلمت في القرية أن هناك كوخاً فارغاً هنا، فذهبت الى وكيل أملاك دونمور واستأجرت المكان.

ـ وكم ستبقى هنا؟ ومتى ستتحرك لتنتقل إلى المكان القادم من تجوالك؟ أنت تذكرني بالسمكري الذي يتجول من مكان إلى آخر ليقوم بالأعمال الغريبة، هل تعلم أن آخر رجل سكن هنا كان سمكرياً؟

ـ هل تعنين أنني أبدو كسمكري؟ تصليح المواعين والمقالي، عمل لم أقم به أبداً.

ـ إنه عمل لا يشمل المواعين والمقالي دائماً، فالسمكري اسم اطلق على الباعة المتجولين الذين كانوا يجوبون البلاد منذ تشتت القبائل. ويدعون أنهم من سلالة القبائل الرئيسية. يعملون الأعمال الغريبة حيث حلوا، ثم يرتحلون عندما يواجهون المشاكل.

ـ لست متأكداً من أنني أشعر بالإطراء أو الإهانة بمقارنتك لي بهم. سأبقى هنا للوقت الضروري، والآن ماذا عن الوظيفة هل تعلمين أي عمل أستطيع القيام به هنا؟

ووقفت جان وقد شعرت أن طوله وعرض كتفيه قد جعلاها تبدو صغيرة جداً.

ـ لا أعلم، ولكن والدي قد يرغب في من يعمل له. يمكنك سؤاله غداً إذا أتيت إلى المزرعة.

ـ قد أفعل هذا.

وشعرت أنه يريد منها الذهاب، ولكنها لم ترغب في مغادرة تلك الغرفة التي أعطتها، في ضوء النار المشتعلة والشمعة، انطباعاً من الدفء والأمان جعلها غير راغبة في مواجهة البرد القارس في الخارج. فقالت:

ـ الأفضل أن أذهب، شكراً لك على الشاي، ولمساعدتي في التفتيش عن النعجة. أظن أننا فقدناها للأبد، وأنها ماتت من الجليد في مكان ما.

وتبعها الى الباب وفتحه لها، ودخل الريح، وأطفأ الشمعة. وعبق الدخان في الغرفة من النار، ورحل الشعور بالدفء حالاً، ولم تعد الغرفة على أي حال، سوى غرفة فارغة غير مريحة بجدران محطمة وارضية مكسرة.

وقال دونكان ورنة ساخرة في صوته وكأنه وجدها لطيفة:

ـ لا تقلقي.. اتركي الأمر الآن غداً قد تعود النعجة تجر أذيالها، إذا لم تمانعي سأغلق الباب بسرعة حتى أضيء الشمعة: تصبحين على خير.

وأغلق الباب وراءها، واصبحت لوحدها في الليل والريح البارد يلفح وجهها. وأحنت رأسها أمام لفحة الشتاء. وبدأت تسرع نحو فتحة الجدار. ونظرت وراءها مرة واحدة. وكان هناك نور أصفر ضعيف في إحدى نوافذ الكوخ.

فقد اشعل الغريب شمعته من جديد.

الفصل الثاني

بالمقارنة مع الغرفة المضاءة بالنار والمليئة بالدخان في «تيغ أوسدين» بدا المطبخ في «تيغانكوراش» كبيراً ومشعاً ونظيفاً تحت أضواء الكهرباء التي عادت الآن. واعتذرت جان لتأخرها، وغسلت يديها وأخذت مكانها على طاولة العشاء. وشرحت كيف ساعدها دونكان في البحث عن النعجة وأنه دعاها إلى تناول الشاي معه في الكوخ.

وساد الصمت بعد حديثها، ولدهشتها بادرت جدتها لكسر الصمت:

ـ هل هو من استراليا كما كنت تظنين؟

ـ أجل.. على الأقل ولد وعاش هناك، ولكن في السنوات الأخيرة كان يتجول في العالم يعمل حيث يجد عملاً.

وقال جون:

ـ إذاً لا أستطيع القول إن ما سمعته أعجبني، إنه ليس النوع الذي نحتاجه في الوادي. كيف لنا أن نعرف لماذا لم يبق في استراليا؟

ـ هل أخبرك لماذا ترك استراليا؟

ـ لا لقد قال فقط إنه أراد القدوم الى اسكتلندا لأنه يعتقد أن عائلته تحدرت من هنا.

وقالت الجدة اغنس: «لا بد أن لديه اخبار عن دايفي ماكلاكن».

وردت جان: «لا اعتقد هذا يا جدتي».

وسألتها شينا: «ما اسمه؟»

ـ دونكان

ـ دونكان ماذا؟

ـ لا أعلم، لقد قال إن اسمه دونكان، ولا أعلم إذا كان هذا اسمه أم اسم عائلته، ولم أشأ أن أسأله.

ـ أجل، لقد فهمت، لا بد أنه لا يريد منا أن نسأله لأن لديه شيئاً يخفيه. حسناً إذا لم يرحل خلال يومين سأذهب لأطرده بنفسي، أظن أنك لم تقولي له إنه لا يملك الحق بالبقاء هناك.

ـ بل لديه الحق، فقد استأجر المكان من وكيل الأملاك، وينوي البقاء هناك.

واحمر وجه جون ريد، وضمّ إحدى يديه في قبضة، وهو يحاول السيطرة على غضبه، وقالت شينا:

ـ لا فائدة يا جون من فقدان اعصابك، تذكر ماذا قال الدكتور عن ضغط الدم لديك. إذا كان الشاب قد تولى أمر المزرعة قانونياً فلديه الحق بالبقاء كذلك منع خرافنا من الرعي هناك. على كل أنت تتركها ترعى هناك من دون إذن.

ـ سكوت اندرو فوربس هو بمثابة إذن، وقبل أن يأتي اندرو لم يعترض أحد، حتى عندما كان والدي حياً وكامرون لانغ، المالك الأصلي موجوداً.

ـ الأفضل الانتظار لمعرفة إذا كان بقاؤه هناك قانونياً، وما إذا كانت نواياه جيدة.

وقالت اغنس بلطف: «إنها نصيحة جيدة من شينا الأفضل أن نأخذ بها».

ـ حسناً.. هل اعطاك دونكان هذا فكرة عن مدة بقائه يا جان؟

ـ طالما هو محتاج للبقاء.

وقالت اغنس وهي تهز رأسها:

هكذا إذاً... سيبقى طالما يحتاج الوادي لخدماته.

وتمتم جون «يبدو أنه بارع في التهرب من التساؤلات، حسناً، كما

قلت سننتظر لنرى. وحتى ذلك الوقت اتمنى أن لا يضر وجوده بأحد».

وقالت شينا:

ـ أنت دائماً تشتكي من خسارة الوادي للشباب، وأنه لم يعد هناك أحد ليهتم به في المستقبل، وعندما يأتي أحدهم تريد طرده لأنه أخذ أرضاً كانت عينك عليها. هذا نوع من النفاق، أيضاً، كيف تحكم على شاب قبل أن تلتقي به؟

ـ وانت تقبلين به قبل أن تلتقيه، جان هي الوحيدة بيننا التي التقت به، ما رأيك به يا فتاة؟

واربك السؤال جان، ما رأيها بدونكان؟ لقد فتنها وحيّرها بنفس الوقت. كانت ترغب في الإعجاب به ولكنها خافت. وترددت ولاحظ والدها ذلك وأسرع للقول:

ـ أرأيت يا شينا، إنها لا تعرف، وهذا يكفيني، يجب التقصي عن هذا الفتى قبل أن نتركه يستقر في الوادي.

مرة أخرى تغير الطقس في اليوم التالي، وبدأ الثلج يتساقط وسمعت أصوات الماء الجارية في كل مكان. وبعد الظهر برزت الشمس شاحبة من بين الغيوم، وكانت جان قد انهت عملها في المزرعة وقررت العودة للتفتيش عن النعجة. وبينما هي تستعد للخروج توقفت سيارة رمادية تعرفها جان جيداً، وقالت المرأة التي خرجت منها:

ـ أرجو أن تكون أمك في المنزل.

كانت السيدة هورتنس لانغ زوجة الكولونيل لانغ الذي يملك املاك دونمور، وهي رئيسة فرع مؤسسة نساء الريف، والتي كانت والدة جان عضواً فيها.

ـ أجل، إنها هنا، كيف حالك سيدة لانغ؟

ـ حسنة جداً، شكراً يا عزيزتي، يبدو أنك تستعدين للذهاب الى التلال. كنت آمل أن تكوني في البيت لأن ساندرا معي. ستمكث بعض الوقت معنا وهي ضجرة جداً من هذا الطقس. واعتقدت أن حديثها معك سيسليها قليلاً.

ونزلت شابة من السيارة في حوالي السادسة والعشرين من عمرها وقالت: «لقد قالت أمي انني يجب أن أعرفك، ولكنني قلت لها انني أعرف شقيقتك ايلين، اين هي الآن؟».

ـ في غلاسكو، إنها تعمل مع فرقة مسرحية، أرجوك أن تدخلي.

وقادتها نحو الباب الأمامي وأدخلتها الى الردهة ثم إلى غرفة الجلوس، وطلبت منهما الجلوس وذهبت إلى المطبخ حيث كانت أمها تخبز.

ـ السيدة لانغ هنا، تريد أن تراك، لقد أتت بساندرا معها.

ـ ما هذا الإزعاج، إنها هنا للتخطيط للاجتماع القادم. ستدعونا الى قصرها حيث ستخبرنا عن الأثاث الأثري الذي جمعته هي وزوجها هناك.

ـ أحب أن أذهب إلى هناك، فلم أدخل القصر أبداً. سأنهي الخبز عنك.

ـ أجل، أرجوك، واحضري أفضل طقم شاي عندنا. فالسيدة تحب شرب الشاي في أفضل أطقم صينية.

وبينما جان مستغرقة في العمل، أجفلت عندما قرع أحدهم الباب. وذهبت لتفتح الباب، وكان الغريب يقف هناك وذراعاه ملطختان وهو يحمل النعجة.

ـ أين وجدتها؟

ـ في الناحية الأخرى من جدار الحدود. مدفونة تحت الثلج، لقد بحثت عن نخباً فوقعت في مشكلة، أظن أنها بدأت تستعيد عافيتها، أين آخذها؟

وقاومت النعجة لتخلّص نفسها من ذراعيه.

ـ الأفضل أن تأخذها الى هناك تحت السقيفة.

رؤيته لأول مرة تحت الضوء الساطع لشمس بعد الظهر، جعلها تلاحظ وسامته الرائعة، ولسبب ما جعلها هذا خجلة منه.

ـ والدي هناك، وسيعتني بها، شكراً لك لإنقاذها، ربما تعود بعد لقاء والدي لتناول الشاي وبعض البسكويت.

فابتسم، واحست بالحبور، وتمتم قائلاً:

ـ سأعقد معك صفقة، إذا نجحت في طلب الوظيفة من والدك، سأعود لتناول الشاي وبعض البسكويت، أشعر بالجوع بعد تفتيشي عن النعجة.

واستدار وذهب، واسرعت إلى المطبخ لتخرج البسكويت من النار، ولدهشتها وجدت ساندرا عند النافذة تراقب دونكان.

ـ من هو؟

ـ إنه دونكان.

ـ يذكرني بشخص ما. شخص رأيته مؤخراً، ولكنني لا أتذكر من هو.

ـ ربما شاهدتيه في القرية، لقد سكن في تبغ أوسدين منذ أول هذا الاسبوع. أو ربما شاهدتيه ضمن أملاككم. لقد ذهب الى المكتب لرؤية اندرو فوربس، ليستأجر المكان منه.

ـ وأين هي تبغ أوسدين؟

ـ إنها مزرعة من ممتلكاتكم على سفح الجبل، خلف مزرعتنا تماماً.

ـ على الرغم من أنني آتي هنا كثيراً، إلا أنني لا أعرف سوى القليل عن المنطقة وعن الناس الذين يعيشون فيها، ولكنني لا أظن أنه مزارع، إنه يبدو... آه... على مستوى... من الثقافة كما أظن. الا تظنين هكذا؟

ـ لم يأتِ الى هنا إلا منذ أيام، إنه استرالي.

ـ وماذا يفعل هنا؟ لماذا ترك استراليا؟ ليس هناك الكثير ليفعله هنا؟.

ـ هذا غير صحيح، هناك كثير من العمل هنا، فالأرض يجب أن تفلح وتقلع الأعشاب منها. والطعام مطلوب دائماً.

ـ اعتقد هذا. هل تظنين أنه سيعود لتناول الشاي؟

ـ قد يعود، فهذا يعتمد على التوافق بينه وبين أبي، ولديّ شعور أنهما لن يتفقا.

ـ لقد ارسلتني والدتك للسؤال عن الشاي. ساتناوله هنا معك بدلاً من تناوله معهما. صديقك المزارع يبدو مثيراً للاهتمام وقد يعود إلى هنا. لقد زار والدي استراليا منذ سنوات وله اصدقاء هناك قد يعرفهم.

ـ لا مانع عندي ارجوك اعتبري نفسك في بيتك، اعتقد أن والدتانا تفضلان البقاء وحدهما.

ـ لن أفهم أبداً لماذا تهتم والدتي بتنظيم جمعية من النساء، يبدو لي أن الأمر ممل، فلو كان هناك بعض الرجال لكان الأمر يختلف.

ولم ترد جان، وحملت الصينية إلى غرفة الاستقبال، وبقيت جان بضع دقائق لترد على بضع اسئلة القتها عليها السيدة لانغ. ثم قالت ان ساندرا ستتناول الشاي معها في المطبخ، ولم تنتظر لتسمع الرد، وعادت الى المطبخ لتجد ساندرا تقف ثانية الى النافذة تنتظر عودة دونكان. عدم عودته بعد تعني إما أن يكون والدها قد رده خائباً أو أنهما توافقا أكثر مما توقعت.

وفتح باب المدخل الخلفي وسمعتا صوت رجال. ولمعت عينا ساندرا فوراً وجلست في مقعدها، وسرّحت شعرها إلى خلف أذنيها ونظرت باهتمامٍ الى الباب الداخلي وهو يفتح، ودخل جون ريد، وكان يتحدث من فوق كتفه الى دونكان.

ـ ادخل.. أستطيع القول إنك بحاجة الى فنجان شاي وبعض البسكويت. فأنا أعرف أن الاستراليين يحبون الشاي كثيراً. هل هناك شاي في الابريق يا جان؟

وقفزت على قدميها ونظرت إلى وجهه متسائلة. بدا أنه في حالة مرحة وأنه لم يتخلص من دونكان على أي حال. وقالت وهي تذهب إلى الطاولة:

ـ أجل.. هناك الكثير، هل تعرف ساندرا يا ابي؟

ـ ووقفت ساندرا، وتقدمت نحو جون ريد وهي تمد يدها، مع أن نظرها كان مشغولاً بالرجل الذي دخل خلف جون إلى المطبخ. وقالت:

ـ مضى زمن طويل لم نلتقي سيد ريد. أظن أننا التقينا في معرض زراعي وكنت مع والدي.

ـ هذا صحيح. هل تمضين عطلتك هنا؟

ودخل دونكان، وتقدم نحو الطاولة، واخذ فنجان الشاي الذي قدمته له جان مع قطعة بسكويت. وهمست له:

ـ لقد كنت واثقة أنك ستتفق مع أبي.

ـ حصل قليل من الاتفاق. ولكن في الوقت الحاضر هناك هدنة بيننا. فهو يحتاج الى مساعدة في المزرعة، ولذا اعطاني الوظيفة ليرى إذا كنت أصلح للعمل. سوف أتفحص السياج قرب حدود الممتلكات وأصلحه. المشكلة أنني لا أعرف أين هو.

ـ سأدلك عليه.

ـ شكراً. قال إنني لو أصلحته سيجد عملاً لي، إذ يوافقه ان أعمل دون اتفاق على ان يوظف أحدهم بصورة دائمة. وفي المقابل سيعيرني أدوات مثل تراكتور ومحراث لمساعدتي على إصلاح تيغ أوسدين. وحتى أنه راغب أن يبيعني بقرة لأحصل على حليبها.

وهزت جان رأسها، فهذه عادة سكان الوادي بمساعدة الآخرين، والعديد من المزارعين يعملون أعمالاً إضافي عدا الزراعة. وأقبل والدها ليأخذ الشاي، وفي نفس الوقت قدم ساندرا لدونكان. وللحظات بدت ساندرا متكبرة قليلاً، ثم، وبابتسامة تكتسب أقصى القلوب، هزت رأسها لدونكان وقالت:

ـ كيف حالك؟ من أي جزء من استراليا أنت؟

ـ من نيو ساوث والز.

ـ اوه.. حقاً؟ لقد زار والدي عدة مقاطعات هناك منذ سنوات. لقد مكث بعض الوقت في مزرعة خراف يملكها رجل اسمه بينت. ربما تعرفه؟

وأجاب دونكان ببرود «كل من في المقاطعة يعرف بينت». واستدار لياخذ قطعة أخرى من البسكويت، وادار بهذا ظهره لساندرا، ولم يجهد

نفسه بإكمال الحديث معها. ودخلت شينا من الباب الموصل الى الردهة وقالت:

ـ أمك على وشك الذهاب يا ساندرا. هل قالت لك جان شيئاً عن انضمامك لفرقة الغناء؟

وقالت جان بسرعة:

ـ لا.. لم يكن لديّ الوقت لهذا.

ولم يبدو على ساندرا الاهتمام، والتفتت ثانية إلى دونكان وقالت بحدة:

ـ سيد... ا.. دونكان.. هل انت عضو في فرقة الغناء؟

ـ لا.. لم يطلب مني أحد الانضمام اليها.

وقالت شينا «أنت الشاب الذي سكن في تيغ أوسدين. لقد اخبرتنا جان عنك. أهلاً بك في الوادي. لقد سمعت أنك تصفر الألحان جيداً، لذا فبامكانك أن تغني».

وقال جون «هذه زوجتي. أحذرك، لن تترك لك دقيقة راحة قبل ان تضمك للفرقة».

ـ كما خمنت تماماً سيدة ريد، فأنا أغني بصوت جهوري. متى يكون اجتماع الفرقة؟

والتمع وجه شينا بالانتصار وصاحت:

ـ كنت أعلم هذا! أنت تبدو ذا صوت جهوري. نجتمع السابعة والنصف مساء كل يوم اثنين. تستطيع الذهاب معي ومع جان الاثنين القادم. وماذا عنك يا ساندرا؟

ـ ونظرت ساندرا نظرة سريعة إلى دونكان وقررت:

ـ أحب ذلك، ولكنني لست متأكدة أن صوتي ملائم.

ـ سيكون ملائماً بما فيه الكفاية.

فيما بعد، سارت جان مع دونكان على الثلج الجديد الأبيض باتجاه طرف الوادي. وقالت له:

ـ انت مدرك على ما أعتقد أن ساندرا لم توافق لو لم توافق انت

ـ لقد ظهر لي ذلك، أمك مقنعة ذكية. لقد أصابت عصفورين بحجر واحد.

ـ وحققت ساندرا هدفها في نفس الوقت.

ـ وما هو هدفها؟

ـ أن تتعرف عليك أكثر.

ـ هذا اطراء لي.. من هي، وأين تسكن؟

ـ انها ابنة مالك املاك دونمر، كولونيل لانغ. لقد ورث والده هذه الاملاك عندما مات مالكها العجوز.

وصمتت جان لحظة وكإنما فكرة قد برزت لها:

ـ هذا غريب، اسم العائلة التي كانت تملك تلك الاملاك كان دونكان.

ـ انه اسم عادي بين من هم من اصل اسكتلندي. ألم يكن هناك ملك اسكتلندي اسمه دونكان؟

ـ أجل.. هذا صحيح. إنه الملك الذي قتله ماكبث. هل دونكان اسمك الأول أم اسم العائلة؟

ـ ولا واحد منهما.

وتوقفت جان في مكانها واستدارت لتنظر اليه، وهي تظن انه يمزح وتوقف هو أيضاً ونظر اليها، فقالت:

ـ إذاً ما هو هذا الاسم؟

ـ انه اسم قررت أن اتبناه.

ربما كان والدها على حق، فهذا الغريب لديه شيء يخفيه. وبرزت أمامها كل الامكانيات عنه. ربما يكون شخصاً مشهوراً يحاول تجنب العلنية لذا لم يستخدم اسمه الحقيقي.

ـ هل تبنيت الاسم لإخفاء اسمك الحقيقي؟

ـ ربما...

ـ لقد عرفت.. لا بد أنك فقدت ذاكرتك.

ـ يا الهي... أنت صاحبة خيال جيد. لا... لم أفقد ذاكرتي. القصة طويلة ومعقدة وأفضل أن أبقيها لنفسي في الوقت الحاضر.

ـ سيكون أسهل عليّ أن اتقبلك لو أن لك اسمين.

ـ هذا يبدو مقنعاً، ما رأيك باسم دونكان دايفدسون؟ انه الاسم الذي اعطيته للمصنع. هل ينفع؟

ولكنها وجدت الاسم شائعاً، ويجب عليها أن تعرف سبب شيوعه. وتذكرت انها درست في المدرسة عن شخص اسمه دونكان دايفدسون، كان يحب فتاة اسمها ميغ، عانقها مرة واحدة فاستسلمت له.

ولاحظت ان دونكان كان ينتظر ردها وهو يراقبها، ومع انها علمت ان هذا ليس اسمه الحقيقي قالت:

ـ أجل.. انه اسم جيد.

وتذكرت فجأة الطريقة التي نظر بها إلى ساندرا في المطبخ. وبهتت ابتسامتها، وحلت مكانها تقطيبة. واستدارت فجأة وبدأت تسير، وهي تحذر نفسها. من الافضل لها ان لا تترك نفسها تفتن بابتسامة شخص غريب. فدونكان دايفدسون ليس ذلك الشخص الذي يحاول ان يكونه، ويجب التعامل معه بحذر. وقالت:

ـ يجب ان لا تستاء من ريبتنا بك. إنه بعض ما علق من الماضي، أن ينظر الى أي كان كعدو حتى يثبت أنه مسالم. عندما تدرك ان عائلات كاملة في الماضي ذبحت على يد الغرباء في هذا الوادي فلن تندهش من شكنا في الغرباء.

ـ أتعنين مذابح مثل التي حصلت لعائلة ماكلاكن على يد جنود الكامبلز؟

ـ أجل، ولم تكن لأسباب سياسية، بل خلاف على ملكية الأرض بين القبائل.

ـ ومن ربح؟

ـ عائلة ماكلاكن. مع انهم طردوا من القصر وخسروا املاكهم

عندما ارتكبوا غلطة في اللحاق بالامير تشارلي. لقد دهشت عندما اعطاك والدي الوظيفة، فقد كان غاضباً عندما علم بقدومك.

ـ لقد أوضح لي غضبه، كذلك أعطاني عظة عن عدم امكانية ابناء جيلي على تحمل المسؤولية، ولكن أظن أن انقاذي للتعجة أثبت أنني مسالم. وأخبرته أنني كنت أعمل في مرعى للخراف.

ـ هل كان كبيراً؟

ـ عدة الاف من الفدادين وحوالي ستة وثلاثون الف خروف.

ـ ما نوع العمل الذي كنت تقوم به؟

ـ نفس العمل الذي سأعمله هنا، الاشغال الغريبة.

ـ إذاً.. من أنت؟ لا استطيع التصديق أن عاملاً بسيطاً من استراليا يعرف الكثير عن الملك دونكان.

ـ وهل هذا يهم؟ لننسى الامر، واخبريني عن ساندرا، لدي ضعف خاص أمام النساء حمراوات الشعر. هل هي ابنة الكولونيل الوحيدة؟

ـ أجل..

ـ وهل لديها أشقاء؟

ـ لا.

ـ إذاً هي وارثة الاملاك؟

هذه الفكرة عن ساندرا لم تبرز لجان من قبل. وها هي الآن ترى المرأة الجميلة ذات الشعر الاحمر كشخص جذاب لا لأنها جميلة المظهر أو لأنها تلبس الثياب الانيقة فقط، بل لأنها يوماً ما ستكون ثرية وترث تلك الاملاك. وقال لها:

ـ هل هذا هو السياج؟

كانت قد وصلا إلى حدود الأملاك بين أرض ريد وأرض دونمر. وكانت الارض تقود الى مشتل لأشجار الصنوبر. وعبر المشتل يمر النهر الذي اعطى الوادي اسمه، ومن حيث وقفا ينظران إلى الاسفل، بدت لهما مياهه وكإنها زرقاء كالبحر بالمقارنة مع الثلج الابيض الذي يحيط بحوافي النهر. وتفحص دونكان الشريط الشائك وقال:

ـ يبدو أن الشريط مقطوع عمداً. هل تعرفين أحداً قد يفعل هذا؟

ـ ربما يكون أحد المتسللين.

ـ هل هناك متسللون في هذه الأيام؟

ـ لا بد أن هناك من يرغب في اصطياد السلمون من النهر.

ـ كيف هي علاقتكم مع الوكيل؟

وأخرج كماشة وبعض الادوات الأخرى، ولفة من الاسلاك من الحقيبة التي كان يحملها على كتفه.

ـ عادة، علاقتنا معه جيدة، أعني أن لا مشاكل بينه وبين والدي. الا اننا كنا نأمل أن يطلب يد شقيقتي ايلين. ولكنها رفضت فهي لا تريد التخلي عن عملها كممثلة والعودة لتعيش في الوادي.

ـ وهل تحبين الحياة في الوادي؟

ـ أجل.. ولكنني مختلفة، فأنا لا أحب الحياة في مكان آخر. هل تقبل انت أن تتخلى عن المكان الذي تعيش فيه وتعمل لتلحق بالمرأة التي تريد الزواج منها؟

ـ هذا يتوقف بالكامل على المرأة التي يريد الإنسان التزوج منها... ناوليني الشريط ارجوك...

كان يتكلم معها كالسيد، وبأدب حقيقي، ولكن بلهجة متسلطة واطاعته كأنها الخادم، وسرٌ لسذاجتها. وقال:

ـ إذاً انتن ثلاث اخوات وامهن الرائعة.

ـ أجل، ولكن انتظر لترى جدتي. لقد رأتك قادماً. حتى انها استطاعت معرفة لون عينيك. لديها نظرة غيبية، ولن تستطيع ابقاء سرك مخفياً عنها.

ـ وما هي النظرة الغيبية؟

ـ انها هبة إلهية تتوارثها العائلة. وهي تعني «نظرتين» أو «رؤيا ذات وجهين»، هناك عالمين أحدهما منظور والأخر لا يظهر إلا للناس الذي وهبوا نعمة النظر الغيبي، وهم يدعون انهم يرون أرواح الموتى تزور

الارض، كذلك النظرة الأخرى للاحياء. وبعضهم يمكن أن يتنبأ بالمستقبل. وجدتي لها مزيج من الاثنين.

ـ وهل تنبأت بشيء وتحقق؟

ـ أجل.. لقد شاهدت أمي قبل أن يتزوجها أبي بأمد طويل. وقبل أن يقتل أخي شاهدت جنازة قادمة الى منزلنا.

ـ لا بد أن العيش معها غير مريح. كم عمرها؟

ـ سبعة وثمانون في آخر عيد ميلاد لها.

وحوّل نظره عنها ولاحظت وكأنه يقوم ببعض الحسابات السريعة، أو أنه يشك بكلامها. فأضافت قائلة:

ـ هل يبدو لك هذا سخيفاً.

ـ أبداً. أنا واثق أن بعض الناس لديهم قدرة على الرؤيا أكثر من غيرهم، ولكن ألا يمكن أن تكون رؤيا جدتك عني عائدة إلى توقعها قدوم أحد تعرفه منذ زمن وله نفس شكلي.

واستدار ليكمل عمله في السياج، وجاء دورها لتفكر بصمت. قد يكون محقاً. فمما كانت تتحدث به جدتها عن دايفي ماكلاكن طوال الوقت، تستطيع الاستنتاج بسهولة ان العجوز كانت تحب دايفي كثيراً وتأمل على الدوام ان يعود.

واشتغل دونكان بسرعة وتركيز. أحياناً، وحسب احتياجاته، كانت جان تقدم له العدة، بصمت يكافئه بهزة رأس خفيفة أو ابتسامة تنم عن الشكر. ولاحظت بعد قليل انهما عملا سوية بصمت مترافق، وأنه ليس بغريب، بل شخص مقرب جداً اليها، واخذ هذا الشعور يتزايد. فحاولت التركيز على ندف الثلج المتساقط من السماء وصوت الماء في النهر، واللحن الجميل المرح الذي كان دونكان يصفره. وحاولت منع نفسها من أن تستحوذ عليها رفقته، فأخذت تدندن نفس اللحن. وتوقف الصفير وسألها «هل تعرفين الكلمات؟».

ـ بعضها، انها أغنية قديمة، ولا يعرف أحد من كتب الكلمات. اين سمعتها؟

ـ من راعي غنم صديق أتى إلى استراليا عبر كندا.

ـ كلماتها حزينه جداً، عندما تذكر من سافر عن بلاده وهو مشتاق إليها.

ـ لقد كان قلبه متعلقاً بمروج اسكتلندا.

ـ قلب من، قلب العجوز؟

ـ أجل، لقد كان يتحدث دوماً عن الاراضي الجبلية هنا. وكأنه لم يغادر ابداً أو كأنه لم يرغب ابداً في مغادرتها.

ـ ما اسمه؟ من هو؟

وشعرت فجأة بالإثارة وقد تذكرت دايفي ماكلاكن. واجابها:

ـ كنت أظن أنه جدي... ها قد انتهيت، لقد أصبح السياج بحال جيدة. من الافضل أن نعود. فقد بدأ الثلج يهبط بغزارة. أرجو أن تكوني عالمة بالاتجاهات هنا.

وتحوّل فضولها عن سؤاله لماذا كان يظن أن العجوز هو جده. وركزت انتباهها على تسلق المنحدر وراءه. وعندما وصلا إلى السهل فاجأهما رذاذ الثلج بكثافة بحيث منع الرؤية عنهما لأكثر من بضع امتار. وقالت جان:

ـ لو أننا نجد الجدار الحجري لاستطعنا اتباعه نحو المنزل. هاك.. امسك بيدي حتى لا نفقد بعضنا...

وامسكا بيد بعضهما واحنيا راسيهما، ومشيا الى الامام قاطعين السهل. وبدت لهما حدود سوداء لجدار حجري وعندما بلغاه ادركت جان أنها قد أضاعت طريقها، وقد اصبحا عند الطرف الخاطىء من الجدار على بعد أميال من المنزل، وأخذ الثلج ينهمر بكثافة أكثر. وسألها:

ـ ما هذا البناء؟

ـ إنه ملجأ رعيان قديم.

ـ كم هذا مناسب، انت راعية وبحاجة الى ملجأ، اقترح عليك ان ندخل ونبقى فيه لفترة ما، هل علقت في العاصفة من قبل؟

ـ مرة واحدة مع أبي.
ـ وهل تظنين أننا سنقضي الليل هنا؟
ـ أرجو أن لا نضطر.
ـ يجب أن نفكر ملياً بالخطر الذي ينتظرنا فيما لو تابعنا الطريق.
ـ كل ما نحتاجه هو اتباع الجدار إلى أن نستطيع رؤية اضواء المنزل.
ـ قولي لي ما الاتجاه الذي يجب أن نتبعه لدى خروجنا من هنا.
ـ الباب مواجه الجنوب، ونحن يجب أن نذهب شرقاً.
ـ هل أنت متأكدة تماماً؟
ـ متأكدة.
ـ أظن من الأفضل أن نبقى هنا الى أن يظهر دليل على أن هطول الثلج بدأ يخف. أقترح أن نجلس على الأرض. لو أنني أعرف ما عليها
ـ إنها مخلفات الخراف.
ـ هكذا ظننت، هل تشعرين بالبرد؟
ـ ليس بعد.

وعلى عكس ما قالت، بدأت أسنانها تصطك بشكل ظاهر، وقال: «يبدو لي أنك بردانة، انحني قليلاً الى الأمام».

وتصلبت متسائلة: «ولماذا؟».

ـ حتى أستطيع وضع ذراعي من حولك.
ـ لا عليك.
ـ أجل لا عليّ، ولكنني سأفعل على أي حال حتى أبقيك دافئة هيا جان، عيب عليك أن تظني أن لدي أسباب غير هذه. فليس المكان مناسباً على أي حال.
ـ لم أعتقد..
ـ بل اعتقدت والآن دعيني أضع ذراعي من حولك.

وعندما وضع ذراعه حولها وجذبها بالقرب منه، شعرت بأن الأمر طبيعي ومريح وتساءلت لماذا تجادلت معه حول الأمر هكذا.

وأخذا يعبيان ليقطعا الوقت. ومضى عليهما حوالي الساعتين وهما في الملجأ. وقررا أن ينظرا إلى العاصفة في الخارج، وعلى الرغم من برودة

قدمي جان فقد كانت مترددة في ترك ملجأها في دفء ذراع دونكان، إذ بينما كان يغنيان كانت تريح رأسها على كتفه وشعرت بالراحة.

وكان الثلج في الخارج قد توقف قليلاً بحيث أنهما اصبحا قادرين على رؤية منعطفات الأرض، وسألها دونكان:

ـ هل نستطيع الذهاب الآن؟
ـ أحب أن نجرب، سيقلق والداي إذا تأخرت.
ـ كنت أفكر بهذا أيضاً، هيا بنا إذاً، لنذهب!

ولم يكن السير بالقرب من الجدار سهلاً، لأن الثلج كان سميكاً بالقرب منه، وخلال سيرهما بدأت السماء تصفو، وظهر القمر لوقت قصير بين الغيوم. وتمتم دونكان:

ـ قمر ينير طريقنا رومانسي أكثر من الملجأ ذي الروائح المليء بمخلفات الأغنام، الا تظنين هذا؟

ونظرت الى اسفل التل واغتبطت لمرأى الأضواء تلمع: اضواء تيغا نكوراش.

ـ لقد وصلنا تقريباً. ستأتي معي يا دونكان، لتتناول قليلاً من الطعام.
ـ لا.. شكراً.
ـ ولكن لا بد أنك تشعر بالبرد والجوع. والنار في منزلك لا بد أنها مطفأة. وكانا قد وصلا إلى المدخل الأخضر للجدار الذي كان مطموراً بالثلج، فتوقف وترك ذراعها، وقال ببرود:
ـ ليس هذه الليلة.. أظن أنك قادرة على إيجاد طريقك من هنا.

ووجدت نفسها فجأة ترد عليه بحدة بسبب رفضه:

ـ طبعاً... من المؤكد أنك ستضيع لأن ليس أمامك ضوء يقودك. لم أكن أعرف أن الاستراليين متصلبين هكذا!
ـ أنا لست متصلباً.
ـ إذاً لماذا لا تأتي معي الى المنزل للعشاء؟

ولم يجب فوراً، ثم نظر اليها وقال:

ـ أنا خائف من جدتك.. تصبحين على خير يا جان.

واستدار وذهب عبر البوابة وابتلعته الظلال المعتمة.

الفصل الثالث

ـ حسناً، هل كنتما تصلحان السياج؟

ـ هل أتيت معك بدونكان لتناول العشاء؟

سؤالان قفزا في وجهها الأول من أبيها والثاني من أمها، مما جعل جان تضحك، وهي تدخل الى المطبخ، أحدهما سؤال رجالي يهتم بالعمل والآخر انثوي يظهر الاهتمام بشؤون الغريب، وردت جان:

ـ أجل لقد أصلحنا السياج... وأجل، لقد دعوته للعشاء ولكنه رفض.

ولاحظت أن والدتها حضرّت الطاولة الصغيرة في زاوية المطبخ لاثنين، فرمقتها بحنان وقالت:

ـ لطف كبير أن تفكري به يا أمي.

ـ ليس مناسباً العودة الى كوخ فارغ وطبخ الطعام بنفسه في مثل هذه الليلة. هل هو خجل، هل تظنين؟

ـ لا ليس خجلاً...

وسألها والدها:

ـ لقد تأخرتما في العودة، أين كنتما حتى الآن؟

فردت عليه جان:

ـ ألم تلاحظ أن الثلج يتساقط في الخارج؟ لقد اضطررنا الى الالتجاء الى ملجأ قديم.

وقالت شيلا:

ـ أجل إنها عاصفة كبيرة، وأنا سعيدة لأنكما وجدتما الملجأ، الى أن انتهت العاصفة.

وقال جون بقساوة:

ـ وأنا أتمنى بأن يكون ذلك الشاب قد تصرف بشكل لائق هناك في ظلام الملجأ.

واعترضت شينا قائلة: «اسكت يا جون! مهما كنت تفكر؟ فنحن في القرن العشرين، والشابات أمثال جان يعرفن جيداً كيف يعتنين بأنفسهن. على كل، هذا ليس من شأنك».

ـ أنا لا أثق به بعد، ولا أريد جان أن تغرم به.

وقطع رنين التلفون الحديث، وذهبت شينا لترد. ثم عادت بأسرع مما توقعت جان أو والدها، ووجهها شاحب وعينيها يبدو عليهما القلق.

ـ ما هناك يا امرأة؟

ـ إنها إيلين، لقد أصيبت بحروق من جراء حريق في منزلها، وهي في المستشفى الآن. يجب أن أسافر لأراها يا جون!.

وعادت الذكرى لآخر مرة حدث لأحد أبنائهما، الابن الوحيد، حادث لم يشفى منه أبداً وجعلها يتقدمان فجأة في العمر.

ـ أجل.. أجل.. يجب أن تذهبي. الأفضل أن تتصلي بكريس، ربما تذهب معك غداً.

ـ إنه وقت صعب لمغادرة المزرعة في هذه الأيام، اتظنين أن باستطاعتك تدبير أمرك يا جان؟

ـ طبعاً يا أمي، ما سبب الحريق؟

ـ لقد حدث هذا بعد الظهر اليوم. إيلين كانت تستريح في شقتها استعداداً لعملها في الليل. وسمعت صراخاً من الشقة المجاورة وركضت الى هناك لتجد الدخان واللهب يملآن المكان. يبدو أن بعض الزيوت وقع على الفرن الساخن وأشعل المكان. وكانت المرأة تصيح بهستيريا أن طفلها في غرفة النوم. وركضت ايلين وأنقذت الطفل

واصيبت بحروق من الدرجة الأولى في يديها وفي... في... وارتجف صوت شينا وصاحت «أوه يا جون لقد احترق وجه ابنتي الجميل!».

وسافرت شينا وكريس في الصباح. ولم يعد أمام جان وقت راحة وهي تعمل في البيت، مع أنها وجدت أن جدتها لا تزال قادرة على المساعدة.

بعد يومين، كانت جين على وشك المغادرة كي تحصي الغنم عندما شاهدت دونكان يقطع المزرعة متوجهاً ليركب التراكتور. وتحركت بسرعة بشعور داخلي من الغبطة لرؤيته، وسارت نحو التراكتور لتتكلم معه. ونظر اليها من مقعده دون أن يبتسم. كانت فعلاً ملاحه قاسية ورفع رأسه بخيلاء، وبدا في عينيه انطباع الغضب.

ـ أين أنت ذاهب؟

ـ ذاهب لأصلح سياجاً آخر. اعتقد أن علي أن أجد طريقي بنفسي اليوم.

ـ هل قال لك أبي شيئاً؟

ـ في الواقع لقد فعل، ولن أزعجك بالتفاصيل. هل قال لك شيئاً؟

ـ لا... لم أفعل... ولن أفعل... كيف تظن أنني...؟ لقد حذرني أن لا أثق بك!

ـ إذاً عليك أن تفعلي ما قاله لك، وابتعدي عني الآن وفي المستقبل.

وأدار محرك التراكتور، مما جعل مستحيلاً عليها التحدث، وأخذت تصرخ عالياً:

ـ أرجوك أن تفهم.. إنه يحاول حمايتي لأنني ابنته.

ـ حمايتك من ماذا؟ لقد قلت له إنني هذه السنة لست مهتماً لا ببنات المزارعين ولا بالراعيات!

ـ لم أكن أعتقد أنك مهتم بي، فذوات الشعر الأحمر أفضل لك!

ـ أنت على حق يا فتاة... أنا مسرور لأنك تبلغت هذه الرسالة بشكل صحيح.

وابتعد عنها خارجاً نحو الطريق. واخذت ترقبه وهي على وشك

البكاء. وسمعت صوت محرك آخر غير محرك التراكتور، ومسحت دموعها واقبلت سيارة كان فيها اندرو فوربس ونزل منها وتقدم نحو جان.

ـ أليس هذا الشاب الذي استأجر تيغ أوسدين؟

ـ أجل.. إنه هو. إنه ذاهب لبعض الاعمال لنا، لقد اخذ وظيفة هايمش.

ـ هذا جيد.. ستجدونه نافعاً لكم. هايمش أصبح عجوزاً ولا يستطيع العمل جيداً. لقد شاهدت السياج وقد اصلح، وأريد أن أكلم والدك لأعرف من يتسلل نحو النهر. أين أجده؟

ـ إنه على التل الآن، هل سمعت عن حادثة إيلين؟ لقد أصيبت بحروق وهي الآن في المستشفى وأمي وكريس يزورانها.

ـ هل هذا صحيح؟ حسناً بما أن أمك ليست هنا لا بد أن لديك عمل كثير لذا لن أؤخرك.

وأدار ظهره واتجه نحو باب مدخل المزرعة، ولحقت به جان وقالت:

ـ أندرو.. أنت غير مهتم.. بأمر إيلين، أعني...

ـ آسف لأنها تأذت، ولكن لا شأن لي بالأمر. لقد اختارت إيلين مصيرها بنفسها عندما قررت العمل في المسرح.

ولمس كتفها برفق وقال: «لا تهتمي بالأمر يا فتاة، إنها مشكلتي، وسأستطيع أن أنجو».

ـ ولكن هل ستنجو إيلين؟

ولم يرد، بل فتح الباب، وخرج ثم أقفله، ودون أن ينظر اليها بدأ سيره عبر الحقل، رجل صامت طويل منطوي على نفسه دون عواطف.

وعادت جان من عند البوابة وهي تتنهد إلى المنزل. وسألتها الجدة اغنس وهي تدخل المطبخ:

ـ ألم يكن هذا اندرو الذي كان يحادثك عند المدخل؟ كان يجب أن تدعيه لشرب الشاي معنا قبل أن يذهب، واطلبي من ذلك الشاب أن يدخل عندما يعود. أود أن أقابله واسمع ما يقوله عن استراليا.

ـ أجل يا جدتي سأفعل.

ولكن دونكـان رفض، واستمـر في البقـاء بعيداً عن المنـزل وعن المزرعة، وعن جان. دائماً يتذرع بأسباب لعدم استجابة دعـوة اغنس بعيداً عن علم ابنها.

ومرت نهاية الاسبوع في نشاطـات عاديـة، فذهبت جـان للتسوق يـوم السبت، ورافقت والدها كالعادة الى الكنيسة، وأقبل يوم الاثنين بروتينه العادي. ولم تتذكر جان حتى بعد الظهر أن والدتها عرضت على دونكان مرافقتها إلى التدريب على الغناء. وعندما ذكرت الأمر لوالدها قال:

ـ الأفضل تركه وشأنه، وإذا أراد الانضمام سيجد طريقه بنفسه.

عندما دخلت الى قاعة الغناء، شاهدت الشعر الأحمر الناعم قبـل أن تلاحظ أي شخص آخر. وكـانت سانـدرا تجلس في المقاعـد الامامية، وكان هناك رأس أسـود الشعر بـالقرب من الـرأس الأحمر الشعـر، لقد وجد دونكان طريقه بنفسه، وبدا وكأنه لم يضع وقته بـالتعرف أكـثر على ساندرا.

وردت جان على التحيات المعتادة لاصـدقائهـا، وأجابت عـلى أسئلة حول إيلين، وخلعت معطفها وجلست بين مورغن وجيسي ماكتناير، ثم وصلت مـولي وأخذت مكـانها وضربت على حـاملة النـوتـات بعصـاهـا لتسترعي انتباه الجميع.

ورحبت مولي بالقادمين الجـديدين، ثم طلبت من دونكـان وسانـدرا ان يفترقا وسط ضحك الجميع، ومر وقت التمرين بسرعة وعند العاشرة أعلنت مولي التوقف، وانصرف الجميع الى مجموعـات تتحدث وتتنـاول ثياب الخروج. وسأل كولين جان:

ـ من أقنع ساندرا أن تأتي؟

ـ إنها أمي.. في الـواقـع لم تقنعهـا بـل اقـترحت عليهـا، ثم دعت دونكان للحضور.

ـ وهل أعرف هذا الشاب؟

ـ لقد استأجر تيغ أوسدين.

ـ أوه.. إذاً هو الاسترالي الذي سمعت عنه. يبـدو وجهه مـألوفـاً. ومع ذلك أنـا متأكد أنني لم التق به من قبل.

ـ أتمنى لو أنك تتذكر أين قابلته. هناك شيء غامض حوله.

ـ غـامض أم لا، يبـدو أنـه اصبح مقـربـاً من ابنـة مـالـك القصر الوحيدة.

ـ أجل لاحظت هذا.

وراقبت سـاندرا ودونكـان يخرجـان من القـاعـة معـاً، وأجفلت من حركة يد كولين وهو يضرب جبينه، وصاح:

ـ لقد تذكرت! جانب الوجه هذا، مدبب كوجه الصقر، تصرفانـه، لست أدري كيف أصفه.

ـ كأنه لورد يملك كل الأرض؟

ـ هذا صحيح.. حسناً إنه يذكرني بلوحة رأيتها في مكان ما.

ـ هيا يا كولين.. فكر.

ـ ها أنا أفكر.

وأخذ يفرك مقدم جبينه بأصابعه.

ـ لقـد رأيت الصورة منـذ سنوات، كـانت لوحـة لرجـل من القـرن الثـامن عشر بلباسـه الاسكتلندي المميـز الأشيـاء المعـروفـة: التنـورة، المعـطف المخملي، القـماش المكشكش المعقود عنـد الكتف مـع بـروش ضخم، لـه شعر أسـود لامع معقـود عند الـرقبة، وكـان وسيمـاً ولكن متكبر لقد لاحظت وجهه أكثر من أي شيء.

ـ من هو؟ ألا تذكر؟ ألم يكن هناك اسم تحت اللوحة؟

ـ اسمها فقط «شيخ القبيلة».

ـ شيخ قبيلة ماذا؟

ـ لا أعلم شيخ عشيرة ربما، لو أنني أتذكر أين، إنه مكان لا تتوقعين وجود مثل هذه اللوحات فيه... لا فائدة... لن أتذكر. لنذهب الى الفندق ونتناول القهوة. ألم يولد لكم أي حملان بعد.

ـ لا.. الحمد لله، لديّ ما يكفيني من العمل.

خارج القاعة، استدارا واتجها نحو الفندق، إنها ليلة رائعة وفيها نفحة من الربيع، ووقع ذراعه بذراعها. وجذبها الى الخلف ليبعدها عن طريق سيارة خرجت من الموقف، وعلى ضوء المصباح الوحيد في الشارع، كان من السهل ملاحظة الوجه الشبيه بوجه الصقر، فقد كان دونكان يجلس إلى جوار السائق، ولم يكن من الصعب تخمين من هو.

وقال كولين: «ساندرا لها ذوق في السيارات، ولكن آن الأوان ليعلمها أحدهم قواعد السير في الشوارع».

ـ ولم تشعر بالمرارة نحوها؟ ماذا فعلت لك؟

ـ وهل تبدو عليّ المرارة؟ من المفترض أنني تجاوزت هذا منذ سنوات.

ـ ما هو الذي تجاوزته؟

ـ إنه افتتان صبياني بابنة صاحب الاملاك، ولم يدم طويلاً، لقد القوا بي كالحجر عندما نظروا إلى أعلى، الى عريس ذي لقب ولا أقل من هذا

ـ إذا كان هذا تصرفهم معك، فكيف لو علموا أنها تعبث مع غريب وهو إنسان غامض أيضاً؟

وعلى الرغم من أن جان اهتمت بما قاله كولين إلا انها لم يكن لديها الوقت لتقلق حول اهتمام ساندرا الواضح بدونكان، فقد بدأ شهر نيسان وبدأت النعاج تلد. وكما في الربيع الذي سبق، تبادلت ووالدها الادوار في البقاء مع الغنم في التلال للتعامل مع حالات الوضع العديدة بين النعاج.

وعادت شينا من غلاسكو، وبدأت العمل فور وصولها. وكانت قد قررت أنها لا تستطيع مساعدة ايلين، وبما أن المستشفى لم يسمح لها بالخروج، فقد كان على شينا العودة.

وبنهاية الاسبوع بدا واضحاً أنهم بحاجة إلى مساعدة في العناية بالنعاج أثناء الوضع. وأخيراً، وبناء على نصيحة شينا العملية، قرر جون التنازل عن كبريائه والطلب من الغريب أن يساعدهم. وسألته جان:

ـ هل تشعر أن بامكانك الثقة به الآن؟

ـ أجل.. اكثر بقليل، يستطيع المرء الحكم على شخصية الرجل بمراقبته وهو يعمل. وهذا الرجل لا يخاف من العمل. ولكنني لا أفهم ماذا يفعل شاب من طرازه هنا. وهو ليس بخجول ولا بسيط، وحوله جو من السلطة، وكأنه معتاد على إعطاء الأوامر، وتملكه باللغة الانكليزية يدل على أنه متعلم، وإذا لم يعجبه قولك، ينظر إليك نظرة تقعدك في مكانك.

وتطلعت جان نحو الارض لتخفي ابتسامة عريضة. فللمرة الأولى تسمع والدها يعترف بانه تلقى صداً. وتمتمت قائلة:

ـ لقد انزعج كثيراً لما قلته له يوم علقنا في العاصفة، ودخلنا الى الملجأ.

ـ أجل، أدرك ذلك، ولكن كان يجب أن أقول هذا، وردة فعله اخبرتني الكثير عنه. وأظن الآن أنه قد يفيدنا، وطلبت منه أن يأخذ مكانك في الليل. قال إنه سيأتي الليلة عند العاشرة.

ومع انها كانت تعبة فقد حاولت ان تبقى مستيقظة عندما وصل دونكان. لم يحضر دونكان الى المنزل منذ ان أحضر النعجة، ولكن من سوء الحظ كانت الجدة اغنس قد آوت الى فراشها، لذا لم تتح لها الفرصة لسؤاله عن ديفي ماكلاكن.

وصنعت جان الكاكاو لهم جميعاً، جلست جان بهدوء أمام دونكان ووالدها. وبينما كان الرجلان يتحدثان، جلست جان بهدوء ترتشف الكاكاو وتتفحص وجه دونكان. كانت المرة الأولى التي تتاح لها فرصة دراسة وجهه بعد أن أخبرها كولين عن الشبه الغريب بينه وبين اللوحة التي كانت تدعى «الزعيم».

ورمشت بعيونها، بعد أن أدار دونكان رأسه إليها ليرد على تحديقها به ببرود. وقال «هل تعتقدين انك ستتعرفين عليّ من جديد؟» ولاحظت أنها أصبحت وحيدة معه في المطبخ، فاتسعت عيناها واحمر وجهها وسألته: «أين والدي؟»

- لقد ذهب ليحضر بطاريات جديدة للمصباح. لماذا كنت تحدقين بي؟ لا تقولي إنني أذكرك بشخص آخر، أنت أيضاً.

- ومن قال لك هذا؟

- ساندرا.. وهي مقتنعة انها التقت بي في مكان ما.

- وهل هذا صحيح؟

- ليس حسب علمي.

- إذاً قل لها عندما تراها إن كولين ماتيسون يعتقد أنك تشبه لوحة لرجل رآها في مكان ما، وهو زعيم قبيلة يرتدي الزي الاسكتلندي القديم.

واتسعت عيناه، ورفع حاجباه، وقال:

- حقاً؟.. واين أجد هذه اللوحة؟

- إنه لا يتذكر.

- هذا مؤسف.. من هو ماتيسون؟

- انه البيطري. ويغني في الكورس.

- اوه.. أجل عرفته. إنه الذي يجفل عندما يراني. أنا سعيد انني أشبه أهل البلد وأن أصلي الاسكتلندي يبدو في قسمات وجهي. أود رؤية هذه اللوحة، أرجو ان تخبريني عندما يتذكر صديقك اين توجد.

وأنهى رجوع جون الى المطبخ حديثهما، ونهض دونكان من مكانه، وغادر الرجلان المنزل.

المحادثة القصيرة هذه كشفت أنه تصادق مع ساندرا. هل من الممكن أن يعيد التاريخ نفسه؟ وهل تقع وريثة دونمر بحب رجل مفلس، تماماً كما فعلت ابنة جيلبرت دونكان الوحيدة عندما تزوجت هوغ ماكلاكن؟

ولكن على الرغم من كرهها لرؤية دونكان وهو يطارد الوريثة، فلم يكن لديها أي شك في أنه يعرف الكثير عن الغنم. ففي أحد الايام استطاع ان يشخص بصورة صحيحة، ان إحدى النعاج التي تلاقي

صعوبة في ولادتها، تحمل توأماً. ثم تابع في توليد التوأم ببراعة. وسألته:

- أين تعلمت هذا؟

- لقد تعلمته منذ كنت في السادسة من عمري.

- وكيف لك ان تتعلم وأنت في السادسة فقط؟

- لقد رأيت صورة في إحدى الكتب.

وأخرج التوأم ووضعهما في كيس خاص وحمله على كتفه وفي الحال كافحت النعجة ضعفها ووقفت على أرجلها واخذت تشم الكيس. واستدار دونكان وسار نحو مأوى الحملان واسرعت النعجة الضعيفة وراءه، لأنها كانت تعلم ان طفليها معه. واسرعت جان وراءه وهي لا تقل قلقاً عن النعجة.

كان يستطيع أن يقول أين تعلّم هذا، لكن لا فائدة من سؤاله، فسيتهرب كالعادة. أليس من الافضل ان تتقبله كما هو الآن: مزارع مرح، يعمل بكد؟.

ولكنها لا تقدر، يجب ان تعرف المزيد، يجب أن تعرف لماذا اتى الى هذا الجزء من العالم، الى هذا الوادي المنحدر من هضاب اسكتلندا. وسألته وهي تتبعه إلى المأوى «هل انت بيطري مثل كولين؟» ووضع الكيس أرضاً، وترك الحملان، اللذين بدآ فوراً بالجري نحو النعجة المسكينة يبحثان عن الطعام حيث يعرفان بالسليقة أين يوجد.

- لا.. أنا لست بيطرياً.

جواب صارم وقصير، يحذرها من أنه ليس مستعداً أن يقول لها المزيد. وراقبا الحملان وهما يرضعان من أمهما، ثم التقط واحداً واعطاه لجان. قائلاً:

- خذيه.. سوف تضطرين للعناية به بنفسك لأن النعجة غير قادرة على إطعام الاثنين معاً.

- لا اعتقد أنها تستطيع، فهي تبدو ضعيفة.. ولكنني لا أحب أن أطعم حملاً، لأن هذا يشير الى الفشل.

- هذه المرة الأمر يختلف.. فالأم لا تزال حية. ويبدو أن ولادة النعاج في هذه التلة ناجح مئة بالمئة. فلم نخسر لا جملاً ولا نعجة حتى الآن.

- إنها المرة الأولى، لقد سمعت أبي يقول، لقد جلبت الحظ لنا يا دونكان شكراً لك.

- هل هذا يعني أنكم بدأتم بالثقة بي؟

وخرجا من المأوى الى نور الشمس الدافىء واجابته:

- أجل.. مع انني لا أستطيع إلا التمني أن تخبرنا أكثر عن نفسك

- ليس هناك شيء أخبره. فحياتي بدأت عندما وقع نظري على تيغ أوسدين.

- انت تريد منا ان نثق بك، بينما انت لا تثق بنا. لو كنت تثق بي لأجبت على اسئلتي ولما تهربت. لماذا لا تثق بي يا دونكان؟

- لأنك تسألينني اسئلة كثيرة. توقفي عن هذا وستجدين أننا سنتفق. أما إذا استمريت فيها فسأضطر إلى اسكاتك بالطريقة الوحيدة الفعالة التي أعرفها في التعاطي مع امرأة لجوجة.

- حسناً.. لقد ربحت اليوم، لن أسألك شيئاً، ولكنك لن تمنعني من التفكير بها. أو من محاولة إيجاد أجوبة!

واستدارت وهي تحمل الحمل بين ذراعيها وسارت نحو المنزل. وبعد بضعة أيام انتهى موسم التوالد. وكان أكثر موسم ناجح عرفه جون ريد، ومال الى عزو هذا النجاح لمساعدة دونكان لهم. ونتيجة لذلك تغير تصرفه مع الغريب.

- انك راع ممتاز.. آمل ان تساعدنا أيام الجز، وهناك بعض الاعمال الاخرى ايضاً.

- سأساعدك متى استطعت، ولكن ليس غداً ولا الاسبوع القادم. يجب أن أعير اهتمامي لمزرعتي.

- أجل هذا صحيح.. لك أن تستعمل المحراث والتراكتور وسأقدم لك النصح حول البذار الذي يجب ان تزرعه.

- شكراً لك، أين استطيع شراء الخشب؟ لا يزال هناك بعض الاصلاحات في الكوخ.

- الافضل أن تذهب الى المدينة، هناك باص يغادر القرية عند العاشرة صباحاً. وشكره دونكان ثانية، وابتعد في طريقه إلى مزرعته. ودخل جون الى المطبخ حيث كانت شينا تعمل. وأخبرها عن ذهاب دونكان الى المدينة فقالت:

- وما نفع الذهاب بالباص لشراء الخشب، والعودة بها الى هنا؟ على جان ان تذهب غداً الى المدينة عني، ويستطيعان الذهاب معاً في «اللاندروفر» هذا أقل ما يجب علينا لمساعدته بعد عمله الشاق معنا. اذهبي وراءه الآن يا فتاة. وقولي له.

ولم تستطع جان اللحاق به قبل أن يصل الى مدخل الجدار الفاصل للمزرعة حيث توقف ينظر الى الممر الذي بدأ يخضر بالعشب. واخبرته عن اقتراح امها. ولم يجب فوراً، واحست بأنه لا يريد إلزام نفسه فشعرت بخيبة الامل، ثم وبخت نفسها. لماذا تتمنى ان يذهب معها؟ لا بد انه ضجر منها خلال الثلاثة اسابيع الماضية.

وسألها ببطء وهو يحدق بها: «هل تحبين أن أذهب معك؟»

- أنا... أنا...

- لا أريد ان أعتقد أنك سترافقيني بسبب أن أمك قالت هذا فأنا قادر على الذهاب بالباص.

- لا... أنا أحب أن تأتي معي... أعني أنني لا أعرض عليك هذا لان أمي قالت. اوه... يا دونكان انت مزعج في مداعبتي. ماذا تريدني أن أقول؟

- ما تشعرين به فقط.

- أنت عنيد. أنت تكره أن يعرض عليك أحد المساعدة. أهلاً بك في مرافقتي. حتى أنك تستطيع ان تقود السيارة. إذا كان لديك رخصة.

- في هذه الحال، أنا موافق يا فتاة. سآتي معك ولديّ رخصة. في أي وقت؟

ونظر الى العشب تحت قدميها وسأل:

- لم العشب هنا أكثر اخضراراً؟

- أظن أن هناك مياهاً جوفية هنا، مع أن جدتي لها تفسير آخر.

- وما هو؟ هل يتعلق بالجن والاشباح؟

- أجل... تقول ان الجن يبقون العشب أخضراً للعشاق كي يجلسوا عليه في الصيف.

- ولكن هل يأتي العشاق الى هنا؟

- ليس في هذه الايام، ولكن الجدة تقول إنها عندما كانت فتاة تعمل عند آل ريد، ارسلتها جدتها وراء جدي لتعطيه سلة الزاد التي نسيها، وكان يوماً مشمساً جميلاً، وعندما التقت به هنا.

وتوقفت جان، وقد ادركت ما كانت تقول. لقد أرسلت وراء دونكان هي أيضاً والتقت به في نفس المكان بالضبط.

- تابعي.. ماذا حصل بعدها؟

- لقد جلسا على العشب وتشاركا الغداء.

- وعاشا بسعادة إلى الابد. أنا متأكد أن جدتك تروي القصة افضل منك.

- ولماذا لا تدخل وتسألها بنفسك؟

- ربما، في يوم ما. أراك غداً.

الغبطة التي شعرت بها في تلك اللحظات التي وقفت فيها مع دونكان، عادت اليها في الصباح التالي عندما كانا يستعدان للذهاب إلى المدينة. كان اليوم الأول من أيار، وحسب تقاليد هذه الاراضي الشمالية، تُخرج الحيوانات من الزرائب التي بقيت فيها كل الشتاء وتؤخذ الى الحقول لترعى. وتُشعل النيران من على قمم التلال وحولها يرقص الشبان والشابات احتفالاً بانتهاء الشتاء وقدوم الصيف أو يجلسون أزواجاً يحلمون ويخططون لمستقبلهم.

شيء ما من روح أول أيار هذا عاد الى ذاكرة جان وهي تجلس إلى جوار دونكان في «اللاندروفر» وهي تهبط بها نحو القرية، وبدا لها وكأنها خارجان للاحتفال بهذه المناسبة.

وبينما هما يمران بالاعمدة الضخمة التي تحرس مدخل قصر دونمر، لاحظت جان نظرة دونكان الفضولية إليها، وتساءلت ما إذا كان لاحظ السيارة التي تنتظر عند مدخل الممر لتخرج الى الطريق. لقد كانت سيارة ساندرا. أين يمكن أن تكون ذاهبة؟ إلى القرية أم إلى المدينة؟

بدأت الغابة المحيطة بالقصر تبتعد من وراءهما، وأخذ الطريق يسير بمحاذاة ضفة النهر في الاتجاه المعاكس للقرية. وعلى الضفتين الضيقتين للنهر رأت جان الصيادين يبحثون عن الاسماك. وأخيراً انعطف الطريق مبتعداً عن المياه المتلألئة، وعبر إلى أرض واسعة، كانت تنتشر عليها الاكواخ البيضاء، وظهرت الابقار البنية والبيضاء في الحقول، وقد تركت هناك هذا الصباح.

ومن خلفها ظهر لهم جبال جزيرة «مول» واشارت جان اليها. مدينة «اوبن» مبنية على شاطىء خليج طبيعي عريض. وعلى تل خلف الجزء الرئيسي من المدينة كان هناك بناء مستدير بعطي جواً رومانياً غريباً للمدينة، مقابل المنازل المبنية على الطراز الاسكتلندي.

وبما أن دونكان قال إنه تلقى مؤخراً حوالة مالية فقد ذهبا فوراً الى المصرف حيث يتعامل آل ريد عادة، حيث قدمته جان للصراف. وعند الانتهاء خرجا الى ضوء الشمس ثانية، ووقفا وهما يتمتعان بالمنظر عبر المياه الى الجزيرة الخضراء «كريرا» وسألته جان «إلى أين سنذهب الان؟».

- إلى مكان بيع الأخشاب. ثم إلى مخزن لبيع الخرضوات، احتاج الى مسامير وبراغي وبعض الدهان. كذلك بعض الالواح للسقف.

- من الافضل ان تحصل على مساعدة اليك ماكينن للسقف فهو أفضل من يصنع السقوف في الوادي.

ـ أرى انه كان يجب أن استشيرك من قبل. حسناً سأستغني عن الالواح واكتفي بالخشب.

واخذته الى مكان بيع الأخشاب، واخذ يتناقش مع صاحبها الذي كان صديقاً لجون ريد، ثم حمل الخشب على السيارة، وتركته عند بائع الخرضوات وذهبت لتشتري الصوف والصنانير وأغراض أخرى للخياطة. وعندما عادت وجدته ينتظرها ومعه بعض الاكياس وعلب الدهان. وعندما فرغ من وضع الاغراض في السيارة سألته:

ـ ماذا نفعل الآن؟

ـ الطعام، التجول جعلني جائعاً. لنذهب الى أفضل مكان هنا.

وذهبا الى فندق على شاطىء البحر. وعلى مدخل ردهة الفندق القديم، توقعت جان أن يرفض الموظف استقبالهم بعد أن نظر الى ملابس دونكان العادية. ولكنه أسرع للقول.

ـ الغداء يا سيدي؟ في غرفة الطعام أول باب الى يسارك.

وجلسا إلى طاولة لاثنين قرب النافذة. خلال الطعام شملهما سحر المكان. ولو سؤلت جان بعد سنوات عما تكلما أو ماذا كانا يأكلان ذلك اليوم لما كان باستطاعتها التذكر، كل ما تذكره كان الفرح الذي غمرها. فقد تمتعت خلال ساعة بسعادة لم تعرفها من قبل.

وانتهى الأمر بالنسبة لها بسرعة، وعندما دفع الفاتورة حاولت جان معرفة حصتها منها فقال: «أنا الذي دعوتك وأنا من يدفع».

ـ لا.. أستطيع الدفع عن نفسي.

ـ من هو العنيد بيننا الآن؟ لن تدفعي، لأنني لن أسمح لك، لقد تلقيت لتوي أول حوالة مالية منذ ثلاثة أشهر، وأنا أحتفل اليوم مع أجمل راعية غنم في كل هضاب اسكتلندا.

ولم تستطع جان إلا أن تتساءل من أين أتى المال، ولكنها لجمت فضولها، وهي تتمنى لو تستطيع إخفاء اللون الأحمر الذي غزا وجنتيها نتيجة اطراءه.

ـ حسناً.. تستطيع دفع ثمن الطعام، ولكن لا يجب عليك أن تقول إنني جميلة.

ـ ولماذا لا؟ أنا اعتقد أنك جميلة، وأقول ما أعتقد، لم يقل لك أحد من قبل أنك عندما تضحكين، تلتمع عيناك ويتورد خداك مثل الخوخ الذي لوحته الشمس؟

وشعرت برأسها يدور، فهزته قليلاً، ونظرت اليه بحذر، كان يراقبها بإثارة، وعيناه بزرقة مياه البحر، وردت عليه:

ـ يجب أن تعلم أنه لم يتحدث معي أحد بهذه السخافات من قبل.

ـ ولا حتى صاحب الشعر الأحمر؟ اعني البيطري اللطيف.

ـ بالطبع لم يفعل، ولماذا يفعل؟

ـ ولماذا لا يفعل؟ إنه الشخص الذي ينتظرك لتكبري اليس كذلك؟

ـ وكيف حصلت على هذه الفكرة؟

ـ لدي عينان أرى بهما، ورأيتك معه، ورأيته عندما زار المزرعة. إنه ودود جداً معك.

ـ ولماذا لا يكون ودوداً؟ أنا اعرفه منذ سنوات طوال، منذ أن كنت طفلة، ولكن لم أظن أبداً أنه ينتظرني حتى أنضج ويتزوجني.

ـ ولكن الأمور تجري هكذا أحياناً. تعرفين شخصاً لسنوات وسنوات، دون أن تلحظيه في الواقع، ربما يحتاج الأمر الى غريب مثلي ليلفت نظرك. فأنا ألاحظ كل شيء عن الناس في الوادي أكثر منك لأنني جديد هنا.

ـ إذا كان هذا صحيحاً سأقول له أن لا ينتظر.

ـ ولماذا؟ الأنك لن تكبري؟

ـ سأكبر، ولكنني لست واثقة أنني أريد الزواج منه.

ـ إنه يبدو لي لائقاً، فهو لن يترك الوادي، ويعرف كل شيء عن الحيوانات والمزارع ماذا تريدين أكثر؟

الحب... تلك هي الكلمة التي برزت في عقلها، ولكنها لن تقولها أبداً، لأنها تعتقد أنه سيضحك عليها، إضافة هي لا تعرف بعد معنى

الحب. أحياناً كانت تفكر بأن الشعور الجميل بالرفقة مع دونكان قد يعني الحب. فلو أن الأمر كذلك، فهذا يعني أنها مقدر لها أن تحب شخصاً لا يحبها. شخص يبعد نفسه عنها ويفضل امرأة حمراء الشعر.

- مرحباً أنتما الاثنان، ماذا تفعلان هنا؟

وجاءهما صوت ساندرا فجأة وكانت تقف إلى جانب الطاولة ورد عليها دونكان، بعد أن وقف احتراماً لها.

- كنا نتسوق وقد انتهينا لتونا من تناول الغذاء.

وابتسمت ساندرا له بعذوبة وقالت:

- يا للخسارة.. لم أعرف أنك ترغب في القدوم الى المدينة. كنت أحضرتك بنفسي ووفرت على جان المشقة.

- لقد اتت معي لمساعدتي على صرف حوالة مالية.

- أوه.. أنا هنا مع والدتي لقد تناولنا الغداء مع خالتي اللايدي كارميل كان يجب أن آتي لاتكلم معكما قبل الآن ولكنني لم أستطع تركها.

وذهب دونكان ليدفع الحساب، وعندما عاد دفعت ساندرا ذراعها تحت ذراعه، في ايماءة امتلاك وقالت:

- أريدك أن تأتي لتلتقي بأمي، ها هي هناك.

وكانت السيدة لانغ تودع امرأة أخرى وعندما استدارت نحوهم حاولت منع استغرابها لمرأى ابنتها وهي تتأبط ذراع شاب.

ثم نظرت الى دونكان عن كثب، وظهر على وجهها العجب والاحمرار ولكنها تمالكت نفسها بعد أن قدمت ساندرا دونكان لها بتصرف يدل على التحدي، واستدارت السيدة لانغ وابتسمت لجان بحرارة:

- كم جميل أن أراك يا جان. كيف حال شقيقتك المسكينة؟ هل بدأت بالشفاء؟

- ببطء، ونحن نأمل أن تعود قريباً.

- أحب أن أراها عندما تعود، إنها شابة شجاعة جداً، سنقيم حفل استقبال في القصر قريباً، أحضريها معك، وستتناول الشاي معاً.

والتفتت إلى دونكان واضافت:

- لقد اخبرتني ابنتي أنك أتيت من استراليا، وبأن اسلافك هاجروا من هنا.

- أعتقد ذلك.

- هل عندك فكرة عن المنطقة التي يتحدرون منها؟

- لا ولكنني آمل أن أعرف يوماً ما.

- إذاً يجب أن تقابل زوجي إنه يهوى علم الإنساب، وعنده اهتمام كبير في ملاحقة نسب العائلات التي هاجرت من اسكتلندا. وأنا متأكدة أنه بإمكانه أن يساعدك.

وتوقفت وتفحصته ثانية ثم ابتسمت، واردفت:

- أود كثيراً لو أنك ترافق جان وشقيقتها عندما يزوراني، هل تفعل سيد دايفدسون؟

- سأكون مسروراً جداً.

- والآن يجب أن نسرع، تعالي يا ساندرا، لدينا بعض الأعمال.

وابتسمت ساندرا بانتصار لدونكان ولجان وتبعت أمها خارج الفندق.

إذاً لقد انتصرت ساندرا، وبدا دونكان مسروراً بهذا، لقد تقدما كثيراً بعلاقتهما، فقد دُعي لزيارة منزل ساندرا، وكانت جان ريد الطعم الذي استخدماه لتحقيق هذا الهدف.

وسألها: «متى تتوقعين رجوع شقيقتك من المستشفى؟».

وأظهر السؤال أنه لا يزال يفكر بتلك الدعوة ويرغب في أن يعرف متى سيستطيع الذهاب الى القصر.

- والدتي تقول إنها ستكون في المنزل في نهاية الشهر. وربما قد لا ترغب في العودة الى الوادي، لذا لا تعتمد على وجودها للذهاب الى القصر لتناول الشاي.

- ولكن أنت ما زلت مدعوة، وسآتي معك.

- وإذا رفضت؟ ماذا ستفعل؟

ـ يتوجب عليّ أن أجد طريقة أخرى.

ـ أنت متلهف جداً للذهاب.

ـ ألن تكوني متلهفة لو كان هناك فرصة لمقابلة عالم نسب شهير قد يساعدك في اقتفاء آثار اسلافك؟

ـ هذا ليس السبب الوحيد الذي يدفعك لطلب لقاء الكولونيل.

ـ أنت على حق، لا تنسي أنني معجب بالشعر الاحمر.

واستمر الصمت مخيماً وهما يسيران بالسيارة الى القرية.

وعندما وصلا إلى التلة التي تصعد لتصل الى الكوخ، استدار عند المدخل وتوقف، وعندما نزلت جان لاحظت بعض الفرق، فقد وضع الزجاج للنوافذ، وركب باباً جديداً للمدخل، ونظف الحديقة الصغيرة من الأعشاب والأشواك التي كانت تغطيها. والشجيرات الصغيرة مقلمة وقد بدأت تبرز أوراقها. لقد كان دونكان مشغولاً جداً أثناء أوقات فراغه.

وساعدته جان في حمل الخشب الطويل الى البناء المنخفض السقف ليضعها هناك، وعندما انتهيا عادا معاً الى اللاند روفر وانتظرها لتصعد وتجلس في مقعد السائق، ولم يدعها هذه المرة للدخول ومشاركته الشاي.

وكانت النهاية تختلف عن البداية، فقد تطلعت في الصباح لتوقعات متفائلة كانت أبعد من الواقع، وها هي الآن خائبة الأمل، ولو أنها لا تدري أن ذلك ظاهر في كآبة على فمها، وتهدل كتفيها، وصمتها غير العادي.

ونظر إليها دونكان ويده على مقبض الباب استعداداً لغلقه، ثم مال إلى الأمام وقال بلطف:

ـ شكراً لك على مساعدتي يا جان. روحك رياضية، وقد أمضينا يوماً مثمراً معاً.

واندهشت من كلامه، وحدقت به، وأحنى رأسه ووضع يده على

رأسها وعانقها قليلاً. وانسحب بسرعة وأغلق الباب، وسار نحو الكوخ دون ان ينظر خلفه.

وعلى الرغم من أن عناقه كان رقيقاً، إلا أنها شعرت بوجهها يحترق وفمها يجف، وهي تقود السيارة عائدة إلى منزلها. كانت مرتبكة، ليس مما قام به بل من تجاوبها معه. وتملكها شعور بأن ذلك اليوم مع أنه كان مليئاً بالحبور إلا أنه سجل نهاية لحقبة غير معقدة من حياتها، وبداية حقبة أخرى قد تبرهن عن التعقيد والألم المحتمل.

الفصل الرابع

بعد نهاية فصل توالد الخراف، استطاعت جان أن تعود إلى التدرب على الغناء. في أول مرة حضرت بعد خروجها مع دونكان الى المدينة، وجدت صعوبة في تجاهل الخفقان المجنون الفجائي لقلبها ولتصاعد الدم إلى وجهها، عندما دخل دونكان القاعة، وعند عودتها إلى المنزل أخذت تحدث نفسها، محذرة من أخطار الافتتان، وعاد إليها حذرها المتوارث عندما ذكّرت نفسها أن دونكان نفسه قد أخبرها أنه مهتم أكثر بساندرا.

وهكذا، وبتفكير سليم، قمعت مشاعر الانجذاب لشخص جربت معه وفي عدة مناسبات الانسجام العاطفي لفترات قصيرة ومثيرة، وصرفت أفكارها عنه بتصميم.

وشغلت نفسها بالعمل في المزرعة، وهي تلاحظ بفرح التغييرات التي أتى بها شهر أيار للوادي. عشب جديد أخضر ونضر ينتشر في الحقول والبراري. واختفى عري وظلام الاشجار تحت بروز الاغصان والأوراق الجديدة، وزهورها الزهرية والبيضاء والصفراء، وروائح البراعم البرية، وهبت رياح خفيفة قادمة من البحر لتديب بقايا الثلوج التي كانت لا تزال مختبئة في الزوايا.

وبإبعاد أفكارها عن مالك تيغ أوسدين، أصبحت جان مرتبطة أكثر مع كولين، ودعاها عدة مرات للإبحار معه بعد الظهر عند نهاية الاسبوع في قاربه الصغير، بعد أحد التمرينات على الغناء وقفت جان

تروي لكولين حادثة حصلت في المزرعة ذلك الصباح، وهي تدرك أنه لا يصغي اليها، وهو يراقب ساندرا تقترب من دونكان، وتلمسه على ذراعه لتجذب انتباهه ثم تبتسم له، وتمتم كولين:

ـ لا زلت مشغول البال بشبهه بتلك اللوحة.

ـ هل تذكرت أين شاهدتها؟

ـ لا... كان ذلك منذ عدة سنوات، وفي مكان معتم ومغبر حيث لا يرى المرء عادة لوحة مثلها، لم تكن معلقة على جدار منزل ولا في معرض. اتمنى لو أنني أتذكر. قد يكون من المفيد أن أعرف.

ـ لقد اخبرت دونكان عنها مرة، وقال لي أن أخبره عندما تتذكر، فهو يرغب في رؤيتها.. أترى، إنه يحاول تقفي أثر أسلافه، وهو يعتقد أنهم عاشوا هنا في هذه الهضاب.

ـ دايڤدسون... إنه اسم عادي، ولن يسهل عليه عمله لو أنه لا يعرف من أية منطقة هم.

ـ كنت أفكر أن هذا ليس اسمه الحقيقي.

ـ وما جعلك تفكرين هذا؟

ـ مجرد شعور.

ـ لا تقولي إنك أصبحت عالة بالغيب مثل جدتك؟ إذ يقال ان الأمر متوارث في العائلة.

ـ لا اعتقد هذا، بل أستند على حوار معه عندما قدم إلى هنا. لقد سألته عن اسمه الثاني وقال إنه تبنى اسم دونكان.

ـ إذاً أنت تعتقدين أنه يخفي هويته الأصلية.

ـ لا.. لا أعرف كيف يقدر، لا بد له أن يمتلك بعض الوثائق، جواز سفر مثلاً، أنسيت أنه مهاجر؟

ـ اعتقد أنك على حق، ولكن هل تظنين أن اندرو فوربس قد طلب جواز سفره؟

ـ ساندرا تقول إنها تشعر بأنها التقته في مكان ما من قبل، حتى أنها قالت له هذا، ولكنه تفكير.

ـ اتظنين أن علاقتهما مجرد علاقة بريئة، أن الانجذاب الحسي باد عليهما... هاي... أين أنت ذاهبة؟

ـ لا أحب هذا النوع من الكلام. كذلك لا أحب ان تذهب والدتي عند كريس لوحدها.

ـ قد لا تحبين سماع هذا الكلام ولكنني أقول الحقيقة، فهناك أناس شاهدوا سيارتها تهبط من رأس التل عند أطراف الوادي ليلاً.

ـ هذه ليست استنتاجات لطيفة.

ـ لننساهما ونفكر بأنفسنا، هل تحبين الذهاب إلى حفلة راقصة ينظمها نادي اليخوت؟ ستجري في المدينة.

واستدارت لتحدق به وقد أدهشها عرضه، كانت تعلم من مرات سابقة خرجت معه أن ميولهما متشابهة، فهو يحب النزهات، والحيوانات، ويؤمن أن لا مكان في الدنيا أفضل من الوادي، هل من الممكن، كما أشار دونكان، أن يكون بانتظارها لتكبر، وأن دعوته الدائمة لها للإبحار معه أو الرقص هي المقدمة، لعلاقة رسمية؟

هناك طريقة واحدة لتعرف، ستخرج معه وسترقص معه كل هذا الصيف لترى ماذا سيحدث، وردت بكل بساطة:

ـ أحب أن أذهب.

ـ هذا رائع، سأراك فيما بعد ونتفق.

كانت عائدة من عد الخراف على التل، في يوم مشمس بديع عندما التقت بوالدتها مع دونكان يخرجان من الزرائب، وقالت شينا:

ـ كنت أريه الكراسي القديمة التي وضعناها هنا. يستطيع استخدامها بدل تركها للغبار.. ألا تدخل لتناول الشاي يا دونكان؟ حماتي دائمة التذمر من أنها لم تقابلك بعد.

ونظر دونكان الى جان ورأى التحدي في عينيها، فقال:

ـ أرى أنني لو رفضت ستعتبرني الصبية جباناً.

ونظرت اليه الأم وعلى وجهها إمارات الخيبة:

ـ لا أعلم رأيها فيك، ولكن يبدو أن هذا سيكون رأيك جميعاً إذا استمريت بالرفض.

واستدارت ثم دخلت الى المنزل غاضبة فقال دونكان:

ـ لقد اغضبتها بالتأكيد، ماذا أفعل لأرضيها؟

وردت عليه جان: «بأن تدخل وتتناول الشاي، وستسامحك».

وتبعها إلى المنزل، وقدمته على الفور للجدة اغنس، مدت الجدة يدها ووضعتها في يد دونكان الكبيرة، وقالت له اغنس بصوتها الناعم: «إنك شاب قوي، أظن أن دايفي عندما كبر كان يشبهك، لا بد أنك كبرت هكذا في مكان مليء بالشمس ورأسك مرتفع اليها. يقولون إن الشمس تسطع هكذا في استراليا».

ورفعت رأسها إلى جانب واحد، ونظرت بعينيها الغائرتين إلى رأسه وأحست جان بالرعشة عندما لاحظت بوادر النظرة الغيبية عليها.

وسألته اغنس:

ـ هل جلبت لي رسالة من دايفي؟

وارتعشت جان ثانية، وحل صمت قصير متوتر، وتنقلت أنظار دونكان من وجه شينا إلى وجه جان، وقد شحب لونه، وتملك جان شعور بأنه يعلم تماماً ما تتحدث به جدتها، ولكنه ليس راغباً في أن يعترف. وقالت شينا بلهجتها الحادة:

ـ والآن يا أمي... ماذا تحاولين أن تفعلي...

ـ أنا أتحدث عن دايفي الذي كان يعيش في تيغ أوسدين. اتذكرين أنني أخبرتك أنه قال انه ذاهب إلى استراليا مع والده، وإنه يوماً ما سيكون له مزرعة غنم ستكون أكبر من مزرعتنا؟

وقال دونكان:

ـ استراليا بلد كبير يا سيدتي، وفرصة أن التقي بصديقك بعيدة جداً. آسف لما سأقوله، ولكن لو أنه حي لا بد أنه عجوز الآن.

وتنهدت اغنس وقالت:

ـ لقد نسيت هذا، ذاكرتي لم تعد جيدة، وهي تخدعني، كان عمره

خمسة عشر سنة عندما سافر وكنت أنا في العاشرة، كان شعره اسود وعيناه زرقاوان، أنت تذكرني به.. أجل... ماذا قلت اسمك؟ دايفدسون؟ هذا يعني ابن دايفد. أجل.. كنت اظنك ابنه، وقد عدت لمنزل ابيك، ولكنني أدركت الآن أنك صغير جداً. اذهب الآن إلى الطاولة وتناول الشاي أيها الشاب.

في تلك اللحظات كان وجه دونكان قد أصبح شاحباً أبيض، ولكنه لم يعلق بشيء واتجه إلى الطاولة ليأخذ الشاي، وعلى الرغم من أن لونه عاد بالتدريج الى طبيعته، فقد بدا مضطرباً بينما كان والدها يتحدث معه بأمور المزرعة، ولاحظت جان عدة مرات أنه نظر إلى جدتها بقلق.

وعندما وقف دونكان ليخرج تحججت جان أنها لم تنه عد الخراف عند التل لتخرج معه. وسارا معاً عبر الباحة الخارجية نحو التل، وخرق الصمت وقال:

ـ سمعت أنك ذاهبة الى غلاسكو عداً لإحضار شقيقتك.

ـ أجل.. أنا ذاهبة.. دونكان أظن من الأفضل أن أحذرك بأن الناس بدأوا يتكلمون عنك وعن ساندرا.

ـ وماذا يقولون؟

ـ لقد شاهدوك عدة مرات في سيارتها.

وكان من الصعب عليها جداً أن تقول له أي شيء أكثر دون أن تشعر بالإحراج.

ـ هكذا إذاً؟ هل من المحرم أن يركب مزارع بسيط في سيارة ابنة صاحب القصر؟

ـ لا.. إنما...

ـ إنما ماذا؟

لقد علقت! لماذا فكرت بتحذيره حول الشائعات؟ ونظرت من حولها تفكر، ولأول مرة لاحظت أن هناك بوابة جديدة ركبت عند فتحة الجدار، وبهذا اقفلت الطريق إلى مزرعة تيغ أوسدين، وصرخت بغباء:

ـ ياه... لقد ركبت بوابة جديدة للجدار.

ـ طبعاً، فالحقل الذي وراءه زرعته بالبطاطا، ولا أريد ان يدخله الخراف. ولكن هذا ليس ما كنت ستقولينه يا فتاة. هيا... قولي، ماذا يدور في ذهنك؟

بدا نزقاً، وعديم الصبر معها، واستفقدت للود الذي كان يرافق اللقاءات بينهما، وبدا أن هوة الفروقات بينهما قد ازدادت: الفارق في السن، في التربية، في التجربة، في المزاج، وتساءلت كيف كان لها أن تعرف هذه اللحظات من الانسجام معه. ربما لم تكن موجودة أبداً. ربما لم تكن سوى في مخيلتها.

وقال لها بهدوء: «لا تقولي إنك نسيت ما كنت ستقولينه».

نظرت اليه نظرة جانبية قلقة. وكانا قد وصلا الى البوابة البيضاء الجديدة. واتكأ عليها، ينظر الى الوادي وعيناه تستقران على الشمس اللامعة عند الغروب. وقالت:

ـ لا.. لم أنس، ولكن من الصعب عليّ أن أقول، فالناس لا يتحدثون فقط عن ركوبك السيارة، فقد شوهدت سيارتها متوقفة في الليل خارج الطريق، وبما أنك كنت تشاهد معها فقد توصلوا إلى استنتاج قذر.

ـ وهل تصدقين ما يقولونه؟

ـ لا أريد أن أصدق.

ـ اعتقد أنني يجب أن أشكرك على هذا الدعم. وسأكافئك عليه بالقول عكس ما يقولونه، بأنني لم أكن مع ساندرا يومها.

ـ وشوهدت أيضاً وهي تهبط من الوادي متأخرة في الليل، وأنا أعرف انها لم تكن تزورك.

ـ هل هذا مستوى معاملتكم للقادمين الجدد الى الوادي؟ حملة تشهير؟ يبدو لي أن أحداً يعارض وجودي هنا، ويعارض أكثر صداقتي لساندرا.

وحدقت به بصمت، وهي تفكر بالشخص الذي كان مصدر هذه المعلومات، كولين. هل يكون قد اختلق هذه الاقاويل متعمداً لتشويه

سمعة دونكان؟ وإذاً كان هذا صحيحاً، لماذا؟ وهمست:

ـ أنا آسفة يا دونكان. كنت أحاول أن أحذرك فقط.

ـ تحذيرني من شيء لم أفعله... حسناً يا فتاة شكراً لك. هل ستسألين ساندرا من كانت تقابل عند التل؟

ـ لا... لا أستطيع.

ـ إذاً، كل ما استطيع قوله انك وقعت على سر غامض آخر. جدتك أرعبتني، فالرجل العجوز الذي كنت اعرفه في استراليا من أصل اسكتلندي اسمه دايفي، ولكنني لم اعرف اسمه الاخر ابداً.

وارتاحت عندما غيّر الموضوع، ولأن البرود ذهب من صوته. وأجابته جان:

ـ لقد قلت انك كنت تظن أنه جدك. ماذا كنت تعني؟

ـ هكذا فقط، كان يمكن أن يكون جدي لأنه عجوز، ولكنّ لا اعرف على التأكيد. ولا اعرف أبي ايضاً.

ها قد فسر غموض دونكان أخيراً. واصبح كل شيء أوضح الآن. فصاحت وهي تبتسم له:

ـ إذاً أنت يتيم، كم انا سعيدة.

ـ أنت أغرب فتاة عرفتها في حياتي. لمَ أنتِ سعيدة لمعرفتك أنني يتيم؟ كان يقال لي دوماً إن وضع اليتيم وضع حزين، وان الناس يشفقون على مثل هذا الشخص دائماً.

ـ اعني أن هذا يفسر لي تبنيك لاسم دونكان

ـ صحيح؟ ولكنني لم افهم، ولكن إذا كان هذا يرضي فضولك فساؤيد الفكرة.

وفتح البوابة ودخل وأغلقها وراءه وقال ضاحكاً:

ـ ها نحن مرة ثانية نقف في المكان السحري، ومن الافضل ان نفصل بيننا البوابة. تمتعي برحلتك إلى غلاسكو، سأراك فيما بعد.

واستدار واخذ يمشي حول حافة الحقل المزروع، وحيرتها كلماته عن المكان السحري، فتنهدت، وعادت الى البيت.

بعد يومين وصلت جان وكريس الى غلاسكو، وتسوقتا ثم ذهبتا الى المستشفى لرؤية ايلين. وبدت ايلين مختلفة، بوجهها النحيل الجذاب وبدت عيناها المعبرتان اعتم واكبر من قبل، ويداها الجميلتان لا تزالان مغطاتان بالأربطة.

عندما رأتهما انهارت وانفجرت بالبكاء.. وبكت جان وكريس على الرغم من ترددهما في إظهار مشاعرهما أمامها. وسرعان ما أخذن يضحكن من فكاهة تفوهت بها كريس من خلال دموعهن.

وبعد اجراء الترتيبات، اخرجن ايلين في الصباح التالي، وذهبن لقضاء ليلتهن عند صديقة لكريس من أيام الدراسة، ثم غادرن عند الصباح متجهات خارج المدينة نحو بلدة دمبارتن لتناول الغداء مع خالتهن هناك، ثم تابعن سيرهن نحو المنزل.

كانت رحلة سعيدة. وقادت كريس السيارة منتصف الطريق حيث توقفن لتناول الشاي في أحد الفنادق، ثم تولت جان قيادة السيارة وهي تغني لنفسها بنعومة.

ووصلن الى بلدة غلن ديرك، وكان الظلام قد بدأ، وحصلت هناك مجادلة بين كريس وايلين، فقد أرادت كريس ان يتناولن العشاء في الفندق، ولكن ايلين انقبضت من فكرة لقاء أي انسان خارج العائلة، وقالت إنها تريد الذهاب رأساً الى المنزل. وفي النهاية انحازت جان إلى ايلين وتابعن سيرهن على الطريق نحو الوادي.

وفي منتصف الطريق الى تيغانكوراش، اضطرت جان الى الخروج عن الطريق قليلاً والتوقف لتترك المجال لسيارة مسرعة بالمرور، وقالت ايلين «من هذا؟» وأجابت كريس «يبدو لي أنها سيارة ساندرا».

ـ هل تعنين ساندرا لانغ؟ ماذا تفعل على هذا الطريق في الليل؟ من المؤكد انها لم تكن تزور أمي وابي؟

ـ أشك في هذا، ربما كانت تتعشى في تيغ أوسدين. لقد كانت تمضي معظم أوقاتها هناك مؤخراً حسب ما يقال.

ـ ولكن المكان فارغ.

ـ لا، انه ليس فارغ. لقد حصل بعض التغير منذ ان كنت في المنزل آخر مرة. فقد عادت ساندرا لتعيش في القصر وسكن في تيغ أوسدين شاب وسيم جاء من استراليا، ويبدو انه غزا قلب الوريثة المحلية. استطيع القول أن جان تستطيع إخبارك أكثر فهي تراهما أكثر مني اثناء تمارين الغناء.

ـ لقد مضى عمر منذ ان اتى قادم جديد الى الوادي. لو حدث هذا الشيء وانا غير موجودة، ترى ماذا سيحدث بعد؟

ـ ربما تزوج الغريب بساندرا. وأنا لست الوحيدة في الوادي من يفكر هكذا. لا بد انه سيضطر للزواج منها بعد الطريقة التي ترمي نفسها عليه. ما رأيك يا جان؟

ووصلن الى المنزل، فأوقفت جان السيارة وأطفأت المحرك وهي تتمنى ان لا تلاحظ شقيقتها أنها لم تجب. ولكن ايلين قالت:

ـ أنت صامتة حول موضوع الغريب يا جان. أليس لديك رأي تبدينه؟

وتمتمت جان وهي تفتح باب السيارة «في الحقيقة.. لا»

ـ الا تحبينه؟

ـ ليس كثيراً.

وغادرت السيارة واغلقت الباب وتوجهت الى المنزل بسرعة قبل ان تسأل ايلين اسئلة اخرى.

خلال الايام القليلة التالية تعودت ايلين على كونها في المنزل. وقاومت كي تتغلب على ترددها في مقابلة الأقارب والأصدقاء الذين زاروها ليشاهدوها ويتمنوا لها الشفاء. كانت في البداية تشعر بالمرارة لما أصابها، ولكنها فيما بعد ارتاحت بعد ان اغدقت عليها أمها الحب والحنان ووالدها الاطراء، وبدت انها سعيدة في منزلها. وعادت طبيعة التمثيل اليها وهي تروي حادثة الحريق لمن يسألها عنها.

كانت إحدى الزائرات، ساندرا التي اعادت دعوة جان وايلين لتناول الشاي في القصر.

ـ لقد حضرت والدتي لتناول الشاي في قاعة الاحتفالات القديمة لقد أعدنا ترتيبها. ولا تنسي أن تجلبي دونكان معك يا جان.

وقالت ايلين وهي مترددة من مقابلة الناس «لست متأكدة أنني أرغب في الذهاب».

ـ لا حاجة لك للاعتقاد أن كل الناس سينظرون اليك. إذا كنت ستسمحين لندوب صغيرة بالتأثير على حياتك فلن تتمتعي ابداً. اليس كذلك؟

ـ أجل.. لن اتمتع. حسن جداً سأحضر، وبالطبع اتحدث عن جان ايضاً. وقالت جان «سأذهب إذا ذهبت».

وكررت ساندرا قولها «واحضري دونكان معك» وأجابتها جان.

ـ إذا أراد الذهاب.

ـ اوه... هو يريد الذهاب، ولكن من الافضل ان يأتي معكما. إنها الطريقة الوحيدة لتقبل به امي في الوقت الحاضر. وانا آمل أن يتغير كل هذا عندما يقابل ابي. ارجو أن لا تمانعي في مساعدتنا يا جان؟

وتنهدت جان وقالت: «يبدو أن ليس هناك خيار آخر».

وعندما غادرت ساندرا أسرعت ايلين لاستجواب جان حول علاقة الوريثة بدونكان واخبرتها جان كل ما تعلم.

ـ إذاً هي قضية وريثة منبوذة ترمي بنفسها على غريب. هل لديك فكرة لماذا ترك جايمس ساندرا؟

ـ قالت لي إنه اتفاق بينهما. لقد قررا انهما غير متوافقين، ولكن السيدة لانغ تقول إن جايمس تركها لأنها لم تقبل بأن تخفض مستواها الى مستوى تصرفات المرأة التي اعتاد على الخروج معها.

ـ اوه. فهمت... إنها لم تقبل بمعاشرته قبل الزواج؟ وهذا لا ينطبق على ساندرا التي اعرفها. لا استغرب لو أن الامر كان معكوساً. وان جايمس هو الذي رفض تخفيض مستواه الى مستواها. لقد كانت تميل دوماً الى رمي نفسها على أي رجل تراه مناسباً. حتى أن اندرو قال مرة...

وصمتت ولم تعد الى الكلام...

في آخر ليلة من شهر أيار ذهبت جان مع كولين الى حفلة نادي اليخوت الراقصة، وامضت أمسية سعيدة نسيت فيها مشاكل ايلين واندرو وغموض دونكان. وكان الكولونيل والسيدة لانغ هناك ولكن ساندرا لم تكن معهما.

وعادا الى المنزل في ساعات الفجر الأولى وهي تشعر بالنعاس بالقرب من كولين. واجفلت عندما اضطر الى الانحراف جانباً ليترك لسيارة ان تمر. وبعد بضعة كلمات غير مرضية ومختارة حول السائقين الرعناء قال:

ـ اعتقد ان هذه ساندرا لقد استغلت الفرصة للسهر في المزرعة حتى منتصف هذه الليلة. اتساءل عن نوع الأعذار التي تعطيها لوالديها لسهرها حتى منتصف الليل؟ يبدو ان الشائعات لم تكذب.

ولم تقل جان شيئاً. رؤيتها سيارة قد تكون لساندرا مرتين على هذه الطريق آتية من اتجاه تيغ اوسدين جعلها تعتقد ان الشائعات صحيحة. وقال كولين وهو يوقف السيارة أمام منزلها:

ـ ها انت في منزلك ثانية، سالمة معافاة. هل تمتعت بالرقص؟

ـ أجل.. شكراً لك لاصطحابك لي.

ـ الن أحصل على أكثر من الشكر؟

ووضع ذراعه حول كتفها وعانقها، ولم تقاومه، فقد كان عليها ان تكتشف ما إذا كان دونكان محقاً وان كولين يرغب بها حقاً. وحاولت ان لا تتذكر عناقها الاول، ولكنها في النهاية أخذت تقارن، فلاحظت غياب تجاوبها. وتركها كولين وهو يقول:

ـ لقد آن لك ان تكبري يا جان، عليك ان تعرفي كيف تتجاوبي.

وشعرت بالدم يتصاعد الى وجهها وشعرت بحاجتها لصفعه.

ـ الأنني غير اللواتي خرجت معهن للرقص يا كولين ماتيسون؟ لا حاجة بك لأن تعطي هذه الملاحظة، فأنا لم اتعود عناق أي كان.

ـ هذا واضح. ولكنني أراهن انك ستتصرفين بشكل مختلف مع صديقك المزارع.

ـ أرجو ان تتوقف عن الاشارة اليه كصديقي المزارع، إنه لا يزيد صداقة معي أكثر من أي انسان آخر. أنسيت صداقته لساندرا؟

ـ لا، لم أنسى. ولا استطيع منع نفسي من التمني لو أنه لم يحضر الى هنا أبداً. كنا في غنى عن أمثاله هنا.

ـ ولماذا تكرهه؟

ـ لدي اسباب. أنا آسف على ما قلته لك يا جان، سأراك يوم الاثنين عند التدريب.

ولكنه لم يحضر يوم الاثنين، ولا ظهر دونكان. في الواقع لم يكن أحد قد رآه في الايام القليلة الماضية، وبدا أن هذا أقلق ساندرا، وتقدمت نحو جان لتسألها عند انتهاء التدريب.

ـ هل تظنين أنه غادر الوادي؟

ـ آسفة.. لا استطيع مساعدتك. فأنا لا أذهب إلى المزرعة كل مرة. مع أنه يسكن في جوارنا.

واتقدت عينا ساندرا بخبث وقد اصابت الملاحظة هدفها. وأجابت ببرود:

ـ لم أكن اعتقد أنك تفعلين هذا، فذلك البيطري الجراح يكفيك وانا متأكدة، على كل لديكما أشياء كثيرة مشتركة.

واستدارت على اعقابها وغادرت القاعة. وهي مرتبكة من جراء هذا الهجوم المفاجيء، إذ لم تكن تعتقد أن ساندرا تهتم بشؤون الناس الآخرين كل هذا الاهتمام.

ومر اسبوع دون أي أثر لدونكان ويوم الجمعة موعد ذهابهم الى القصر بدأت جان تتساءل عما إذا كان سيحضر للذهاب معهما. واقترحت عليها ايلين ان تذهب الى الكوخ لتسأل عنه. واستدارت ايلين لتنظر الى خارج نافذة المطبخ. وانتهت جان، التي كانت تكوي،

بلوزتها قبل ان تجيب وهي تفكر في الوضع بجدية. ونظرت إليها ايلين نظرة ساخرة وقالت:

ـ هاي... يا فتاة، ما بالك؟ هل انت عاشقة؟

وأربك السؤال جان، ولم تستطع الرد، لأن ايلين استدارت لتنظر من النافذة ولاحظت حركة في المزرعة المجاورة. فصاحت فجأة: «ها هو، كما أظن. الرجل في تيغ اوسدين. اسرعي يا جان، اذهبي واطلبي منه ان يدخل لتناول فنجان شاي وسنبحث معه موضوع الغد».

ـ قد لا يقبل.

ـ ولماذا لا يقبل؟ لا بد انه دخل هنا من قبل.

ـ لقد أخافته جدتي..

ـ ولكن جدتي ليست هنا اليوم. اذهبي يا جان اطلبي منه الدخول، اتريدين ان تحتفظي به لنفسك؟ الا تريدين ان التقي به؟ سأذهب لأدعوه بنفسي.

وخرجت ايلين، ولكن سرعان ما عادت، واغلقت الباب الداخلي وبدا وجهها شاحباً. وركضت نحو باب الردهة واختفت، وسمعت جان وقع اقدام، ودخل والدها يتبعه أندرو فوربس:

ـ أجلس يا اندرو.. أين ايلين يا جان؟

ـ إنها فوق، نائمة، ترتاح. إنها لا تشعر بخير.

ونظر اندرو اليها وقال.

ـ أفهم هذا، هل رأيت أي غريب مؤخراً يتجول في البراري؟

ـ لا.. لماذا تسأل؟

ـ كنت اعتقد من زمن ان شخصاً ما يتسلل الى النهر، وانه قد يقوم بعمل ما في الغابة، واليوم وجدت شيئاً جعلني واثقاً.

واحست جان بالبرد في داخلها انه يعني الغزلان الحمراء التي تتجول في غابة دونمر. وهذا الوقت من السنة موعد توالدهم، ويمنع الصيد قانوناً، وكل من يصطادها يعاقب. وفي مطلق الاحوال، لا يجري

صيدها إلا بناء على دعوة الكولونيل وذلك لابقاء عددها منخفضاً حتى لا تتلف الغابة. وسألته:

ـ ماذا وجدت؟

ـ انثى غزال ميتة بسبب طلقة نار، لا بد أنها أصيبت ليلاً وهربت، لا بد أن أحدهم يتسلل ويستخدم الخدعة القديمة بتوجيه الضوء عليها لتجميدها في مكانها ثم يطلق النار عليها ويتركها لتموت.

ـ هذه وحشية.. لم أشاهد أي غريب في الوادي.

ـ وماذا عن دايفدسون؟ هل تظنين انه قد يتسلل.

ـ ليس لأنه يسكن بيت هوغ ماكلاكن يجب عليه ان يكون مثله.

ـ بما انني ولدت بعد مغادرة هوغ للوادي، لا استطيع أن أربط بينه وبين دايفدسون. ما رأيك يا جون؟ لقد عمل معك الشاب. لا بد انك قيّمته حتى الآن.

ـ إنه عامل نشيط وجيد. ولكنه لا يزال غامضاً. انه غير مما يبدو عليه. ولكنني لا أظن انه متسلل الى ان يلقى عليه القبض متلبساً.

ـ فهمت ما تعنيه. فالمرء بريء حتى تثبت إدانته. حسناً. سأترك الامر كما هو في الوقت الحاضر، ولكنني آمل ان تنتبهوا لأي شيء غير عادي. سمعت انكم ستذهبون الى القصر يوم الجمعة يا جان.

واجابته جان «وايلين ايضاً».

واطرق رأسه، وبدأ يتحدث بأنباء المزارع مع ابيها وهي تعد الشاي. وقررت جان ان تذهب لتقابل دونكان بنفسها. وعندما غادر والدها واندرو. ذهبت لتحضر سترتها ووجدت ايلين مستلقية في الفراش تقرأ كتاباً.

وذهبت لتقابل دونكان عبر الطريق الرئيسي، واقتربت إلى المنزل عبر الباحة الخارجية، ولاحظت أن مدخل المنزل مغسول حديثاً.

وقرعت الباب عدة مرات، ولكن دون رد. ففتحت الباب وأطلت برأسها الى الداخل ونادت اسمه، ولم يرد احد. ودخلت إلى الغرفة الرئيسية حيث شربت الشاي معه مرة. جدران الغرفة اعيد دهنها

بالاصفر الفاتح، وتم إصلاح الأرض وغطيت بمشمع للأرض. وعلى كلا جانبي المدفأة التي أعيد دهنها وضع الكرسيين اللذين أعطتهما له والدتها. وبدلاً من الشموع كان هناك قنديلا كاز جديدين على جانبي ماكنة طباعة.

واخذت تنظر الى الآلة بفضول، ثم اخذ تقلب الكتب وتبحث عن اسم مكتوب عليها وعندما لم تجد عادت الى الآلة لتجد ورقة فيها. ومدت يدها لتخرجها، ولكنها شعرت بلفحة هواء باردة، فارجعت يدها فجأة واستدارت بسرعة لتجد دونكان يقف عند الباب وهو يتكىء على أحد جانبيه. وعبر المسافة بينهما استطاعت ان تشاهد في عينيه وميض بارد. وأمام غضبه لوجودها هناك تتطلع الى اشياءه الخاصة، ولعلمها انها مخطئة، لم تستطع جان إلا ان تحدق به وتنتظر لغضبه ان ينفجر عليها.

الفصل الخامس

ـ اوه.. لقد افزعتني! لم اسمعك وانت قادم.

ـ وهكذا لاحظت. لقد كنت واقفاً هنا منذ خمس دقائق. كنت في الحقل خلف الكوخ، ورأيتك تصلين الم تسمعيني وانا اناديك؟

وهزت رأسها بصمت، وتلاشت شعلة الشجاعة القليلة التي دفعتها للكلام بادىء الامر. فلا بد انه شاهدها، وهي تقرأ الاسماء المكتوبة على الكتب.

واغلق الباب خلفه، وتقدم نحوها. لقد اصبحت وحيدة معه في غرفة مغلقة وبدا لها أنه خطر دون ريب. وشعرت وكأنها حيوان علق في مصيدة. وأخذت تتراجع، وهي تنظر من جانب إلى جانب، مفتشة عن طريق للهرب. ووجدت نفسها في النهاية محشورة في الزاوية قرب الطاولة وهو يقف أمامها ويداه مكتفتان على صدره، وارتعدت أوصالها من النظرة الباردة في عينيه. وأخذ يتحدث بهدوء:

ـ منذ قدمت إلى هنا، إتبعّت، عادة قديمة في هذه الهضاب بترك الباب الأمامي مفتوحاً حتى يتمكن العابرون من هنا من الالتجاء إلى الداخل والمشاركة في الضيافة. ولم أكن أدري أن هناك عادة أخرى بان من يدخل المنزل قد يسيء إلى ملجأه وضيافته، بالتحديق في الاشياء والتجسس على ممتلكات مضيفه الغائب.

وتصلبت جان لترد على سخريته منها. في كل حياتها لم يتحدث معها

أحد بمثل هذه الطريقة، ولكنها أيضاً لم تمنح أحد سبباً لأن يكلمها هكذا.

ـ لقد دخلت لأنني ظننت أنك لم تسمع قرعي للباب. وأردت أن أرى ماذا فعلت داخل المنزل، وشاهدت الآلة الكاتبة، والكتب، العديد منهم و... أنا...

ولم تستطع متابعة الحديث، فقد كانت عيناه الزرقاوان تسحرانها.

ـ وتغلبت عليك حشريتك الملعونة. يجب عليّ أن أضربك على قفاك!

وارتجفت من جراء التهديد الذي أطلقه بكل حماس وكأنما سيشعر بالسعادة لوضعها على وجهها فوق ركبتيه كطفل فاسد ويضربها بيده الكبيرة على قفاها، وانكمشت إلى الخلف حتى التصقت بالجدار. وفجأة ملأها الخوف من أن يعاملها وكأنها في نصف عمرها أو حتى أصغر، وحررها هذا الشعور قليلاً، وتصلبت في وقفتها، وصممت على أن تريه أنها تساويه في روح التحدي إذا لم يكن في القوة الجسدية، ورفعت رأسها إلى الوراء، ونظرت إلى عينيه، وانفجر غضبها:

ـ لن تجرؤ على شيء، دونكان دايفدسون! أم هل أدعوك دايفد غارث؟

ـ اوه... بل سأجرؤ أيتها الفتاة.. فلا تدفعيني أكثر.

ـ دايفد غارث! هذا اسمك، أليس كذلك؟

ـ لنقل أنه أحد أسمائي.

ـ هل أنت كاتب روائي؟

ـ نوعاً ما.

ـ لماذا لم تخبرنا إذاً؟ ماذا تحاول أن تخفي؟

ـ يظهر أن هذا بسببك. كان عليّ أن أثق بك من البداية، ولكن هذا لا يناسب فكرة القدوم إلى الوادي كمجهول، غريب من بلد آخر. فقد لا يتصرف الناس بشكل طبيعي لو عرفوا لماذا أتيت إلى هنا.

- لا أفهم ما تقصد.

- لم أتوقع منك أن تفهمي... إلى أي مدى أستطيع الاعتماد عليك في كتم سر يا جان؟

- هذا يعتمد على المدة التي سأبقي السر فيها مكتوماً

- ليس لمدة طويلة. إلى أن أنهي ما قدمت لأجله.

- وماذا أتيت لتفعل؟

- لأكتب قصة ولألفي بوعد. ونهاية مهمتي أصبحت وشيكة. وحتى ذلك الوقت أود أن أبقى هنا معروف باسم دونكان دايفدسون.

- ولنفترض أنني لا أستطيع كتمان السر؟ لنفترض أنني أخبرت الجميع في الوادي أنك تخدعهم فماذا ستفعل؟

واقترب منها قليلاً، مهدداً، بالرغم من بروز التسلية في وجهه.

- أولاً سأضربك، ثم سأسافر دون إنهاء ما قدمت لأجله. وهكذا ترين أنني تحت رحمتك تماماً. ألا يعطيك هذا شعوراً بالسيطرة عليّ؟

السيطرة عليه؟ اوه... لا! فهو من يملك سيطرة محيرة عليها، وهو يستخدمها الآن للتغلب عليها. وهو ينجح بهذا أيضاً. ولم تعد جان خائفة مما قد يفعله بها. بل كانت خائفة من رد فعلها هي لقربه منها، ووجدت أنها كانت تمسك بيديها معاً لتمنعهما من الامتداد إليه لتلمسه. كانتا تريدان أن تمسكا بذراعيه وتنزلقان إلى كتفيه وتلتفان حول عنقه لتعبثا بهذا الشعر الغجري.

- تستطيع الثقة بي، لن أخبر أحداً إلى أن تقول لي.

وراقبت فمه ينفرج عن ابتسامة جعلت قلبها يرقص، ويخفق بشدة. وانحنى نحوها بلطف وأخذها بين ذراعيه، ثم تحركت يداها لتبادله العناق، وتوهج بينهما شيء غريب وجميل، واشتدت ذراعاه لتضمها أكثر، وتمتم بنعومة في أذنها:

- شكراً لك على تأخير تنفيذ حكمك عليّ.

وتركها وابتعد نحو الموقد ليضع بعض الحطب، ولإخفاء ما قد يشعر به. وقال لها بشكل عادي، وكأنما لم يحصل شيء:

- والآن أخبريني لماذا أتيت إلى هنا؟ هل والدك بحاجة إلى مساعدة؟

- لا، لقد أتيت لأرتب معك أمر الذهاب إلى القصر. أنت تذكر أنك مدعو معي، أليس كذلك؟

- ومتى؟

- غداً، القسم القديم من القصر والحدائق ستفتح للعموم. ألم تقل لك ساندرا عندما كانت هنا ليلة الجمعة؟

وبدت عليه الحيرة، ورد عليها:

- لم أرى ساندرا منذ تمرين الغناء قبل الماضي، ويوم الجمعة الماضي لم أكن هنا. في الواقع لم أرجع إلا يوم أمس.

- اوه... ولكنني وكولين شاهدنا سيارة ساندرا قادمة من هذا الاتجاه ليلة الجمعة عندما كنا عائدين من حفلة الرقص. وكانت تقود بسرعة هائلة. ثم شاهدناها بنفس الطريقة عندما أتيت أنا وكريس بشقيقتنا من المستشفى.

- كل ما استطيع قوله إنها لم تكن هنا ليلة الجمعة، لأنني لم أكن موجوداً. وهي لم تأتي إلى هنا من قبل.

- إذاً ما كانت تفعل على هذه الطريق؟ هل تقابل شخصاً آخر؟

- ألم يخطر ببالك أبداً انه قد توجد سيارة أخرى تشابه سيارتها، وهي السيارة التي كنت تركبها؟

- لا لم يخطر ببالي.

- وفضلتي تصديق الشائعات، على ما أعتقد. ولكن قد يكون هذا هو الرد على اللغز، وقد يكون أيضاً مناسب لشكوك اندرو فوربس حول المتسلل.

- وهل رأيت اندرو؟

- في باحة المزرعة بعد ظهر اليوم. لقد ذكر لي الامر، وكان من السهل التخمين أنه يشك بي. أو ربما شخص ما اقترح عليه أنني قد أكون متورطاً، وهو نفس الشخص الذي كان يحاول التخلص مني منذ

صولي إلى هنا. هل لديك فكرة عمن يكون؟

ـ لا... ليس لديّ فكرة.

وتقدم دونكان إلى جانبها ثانية، وشعرت به ولكنها لم تلتفت إليه. قال لها «تعالي إلى الخارج، هناك شيء أريد أن أريك أياه».

ونبعته، وفي الخارج أشار إلى آثار إطار سيارة في الوحل على الممر فقالت جان:

ـ لقد كانت هناك سيارة متوقفة هنا.

ـ اجل. ولكن هذا الأثر لم يكن موجوداً عندما غادرت هنا يوم الجمعة صباحاً. متى أمطرت آخر مرة؟

ـ يوم الاربعاء، ليلة الاربعاء.

ـ إذاً فالسيارة كانت هنا يوم الاربعاء.

ـ قد تكون ساندرا اتت لترى إذا كنت في المنزل

ـ صحيح... ولكنني لا أظن أنها قد تفعل.

ـ إذاً من؟

ـ المتسللون.. في سيارة من نفس طراز ولون سيارة ساندرا. إنها من طراز ولون متداول.

ـ ولكن ماذا عن المرات الأخرى، لا بد أنك شاهدتهم.

ـ عندما أكون هنا، من الممكن أن اشاهد أضواء السيارة، ولذا يوقفون السيارة بعيداً، ويتسللون قرب المنزل نحو أملاك القصر. ومن السهل عليهم حمل اسماك السلمون إلى هنا، وفي الاسبوع الماضي لاحظوا أنني لست موجوداً فحاولوا حمل شيء أكبر، لانهم اقتربوا بالسيارة أكثر.

ـ غزال!

ـ بالضبط. يجب عليّ مراقبتهم والقبض عليهم.

ـ اوه دونكان.. كن حذراً أرجوك! بعض الاحيان يكون المتسللون خطرين وقد يكونوا من المتجولين ولا يهمهم القتال.

ـ لقد شبهتيني مرة بالمتجولين، هل تعرفين إذا كان يوجد منهم أحد هنا؟

ـ يوجد دائماً منهم في مثل هذا الوقت من السنة. أعتقد أن بعضاً منهم يعمل الآن في مزرعة روبرتسون.

ـ وأين تقع هذه المزرعة؟

ـ إلى شمالي أرضنا.

ـ سأذكر هذا للوكيل غداً. أفترض أنه سيكون في القصر.

ـ تقول ايلين إنه سيكون هناك، لذا لن تذهب. وتظن أنه سيكون مشفقاً عليها للندوب التي في وجهها، ولا تستطيع تحمل شفقته.

ـ وماذا ستفعلين من أجلها؟

ـ أنا؟... ماذا أستطيع أن أفعل؟ ايلين لا تقبل نصيحتي. ليس عندك فكرة كم هي عنيدة.

ـ وماذا يجعلك تعتقدين أنها لا تريد أن يراها؟

ـ لقد رأتك بعد الظهر في الحقل، وخرجت لتدعوك على الشاي. وعادت راكضة عندما شاهدت اندرو مع والدي واختبأت في غرفة النوم إلى أن ذهب.

ـ أظن أن الوقت قد حان لمقابلة شقيقتك، سأذهب معك الآن إلى المزرعة لأقنعها بالذهاب معنا إلى القصر غداً

ـ وهل تستطيع؟

ـ أظن هذا، واجبنا يوم غد أن نوفّق بينهما، أتوافقين؟

ـ اجل.. تعال إذاً لمقابلتها. وتستطيع البقاء للعشاء.

ـ تمهلي قليلاً، ولا تستعجليني.

واهتمت فجأة بآثار الدولاب على الارض وأخذت تركل الوحل الجاف بطرف حذاءها. فأردف:

ـ حسناً، سأذهب معك للعشاء وألتقي بايلين، انتظري لحظة، سارتدي قميصاً نظيفاً وأغسل يدي.

وسارا باتجاه البوابة الجديدة، ملتفين حول حقول البطاطا. وانتظرت إلى أن أقفل البوابة خلفهما. وحدّقا ببعضهما وهما يقفان على العشب الاخضر الكثيف تحت ضوء شمس المساء. وقال دونكان وقد استدار ليقرن قوله بالفعل:

- أظن من الأفضل أن نذهب.

وتبعته جان بصمت إلى المنزل، وهي تشعر بالأوهام تغزو عقلها. وفي تيغانكوراش، كانت الطاولة معدة للعشاء، ورحب بدونكان. ودخلت ايلين إلى الغرفة، وأضاء وجهها، الذي لا يزال شاحباً وقلقاً بعد مشاهدة اندرو، عندما شاهدت أن لديهم زائراً، وفي مدة قصيرة سحرها دونكان، وأخذت تتحدث إليه وكأنهما صديقان قديمان، ومرت الامسية بمرح؛ وعندما غادر دونكان كانت ايلين قد وافقت على الذهاب إلى القصر.

حدائق دونمر كانت معروفة في كل الريف بمختلف أنواع النبات الذي ينمو فيها. لذا لم يكن غريباً أن تكون باحة القصر مليئة بالسيارات. وكانت الشمس تطل من بين الغيوم الرمادية بشعاعها على حجر الغرانيت الذي بني منه برج القصر، تلطف المظهر المتجهم الذي يظهر للمعقل القديم لقصر ماكلاكن.

ولم تكد جان تخطو خارج السيارة حتى بدا لها كولين من حيث لا تدري وأمسك بيدها وجذبها نحو شجيرات ملتفة من الورود الحمراء، التي تشكل بروجاً من الأوراق الخضراء تنمو على حدود باحة القصر وقال لها بهمس وهو ينظر إلى دونكان الذي كان يقفل أبواب السيارة:

- لقد تذكرت.

- تذكرت ماذا؟

- تذكرت اين شاهدت لوحة الرجل الذي يشبهه.

- أين؟

- هنا.

- في القصر؟

- ليس بالتحديد. أعني أنها ليست في القصر نفسه، ولكن في الاسطبل. تعالي لاريك اياها.

وتبعته في الممر عبر الشجيرات إلى المبنى الخارجي خلف المنزل الثلاثي الأطراف.

- إنها هنا.

ودفع باب المبنى المنخفض وفتحه. في الداخل كان المكان معتماً، ولم تشاهد جان سوى مراحات الخيول حيث كانت تقف في الزمن الغابر والمملؤة الآن بالأثاث غير المرغوب فيه، وعلى أحد الجدران رصفت إطارات صور قديمة.

- عندما بلغت ساندرا الثامنة عشر أقيم لها احتفال بميلادها وأظن ان ايلين كانت معنا، ولعبنا لعبة الاختباء، وبدلاً من أن يختبىء الجميع ويفتش عنهم واحد، قلبنا اللعبة، فاختبأت ساندرا هنا. وكانت الفكرة أنه إذا وجدها أحدهم يختبىء معها إلى أن يأتي الجميع. وكنت أول من وجدها، ولكن قبل ذلك نظرت إلى إحدى اللوحات وكانت لوحة «الزعيم»، وقد شاهدتها فجأة فأجفلتني. كما ترين هناك بعض الصور هنيا، ولكن تلك الصورة غير موجودة، أغلب اللوحات غير موجودةالآن.

- يا لخيبة الأمل.. لا بد أنها بيعت.

- ربما.. ولكنني كنت افكر، أنت على وفاق مع السيدة لانغ فلم لا تساليها عنها؟

- هل أنت متأكد أنك رأيت اللوحة هنا؟

- طبعاً

- لهذا السبب إذاً تعتقد ساندرا أنها شاهدت دونكان من قبل. لا بد انها تعرف بأمر اللوحة أيضاً، أليس كذلك؟

- أظن هذا.

- إذاً لماذا لا تسألها؟

- سأفعل عندما أشاهدها. دعينا الآن نذهب لمشاهدة الحدائق.

ولم يلتقيا بأحد قبل أن يدخلا إلى دفء البيت الأخضر المخصص للزهور بزجاجه المعتم، حيث النباتات الاستوائية وأزهار الفوشيا تزدهر وأوراق البرتقال والغريبفروت تتدلى فوق الجميع. وهناك شاهدا ساندرا، تقف وهي ترتدي تنورة بيضاء بسيطة وفوقها كنزة بوكليه، ووشاح حريري مربوط بأناقة على عنقها. وكانت تتحدث مع مجموعة من الناس، ولكن عندما شاهدتهما يدخلان، اعتذرت وتقدمت نحوهما. وقالت لجان:

- انا سعيدة برؤيتك. أين دونكان؟ هل أتى معك؟

- إنه مع ايلين في مكان ما.

- يجب أن أذهب للبحث عنه. سيقدم الشاي عند الرابعة في قاعة الطعام في القصر القديم. هل نسيت أين تقع يا كولين؟

- لم أنس شيئاً. واذكر أيضاً بعض اللوحات التي كانت في الاسطبل. هل تذكرينها؟

وتوردت وجنتا ساندرا، ونظرت إليه بحدة. وشعرت جان بأنهما لا يشعران بوجودها. ثم أجابته بصوت جاف:

- أجل.. أذكرها.

- إنها ليست هناك الآن. هل تعرفين أين هي؟

- إنها في القصر. لقد أعادها أبي إلى مكانها حيث يمكن رؤيتها من قاعة الطعام. اذهب وانظر إليها. اعذراني الآن. يجب أن أذهب لأفتش عن دونكان وايلين. لقد طلبت أمي أن آخذهما إليها عندما يصلان.

عند مدخل البرج تحدث كولين مع ساقي القصر هيكتور دوبي وأخذهما نحو باب صغير عبر الجدار السميك كشف عندما فتحه عن سلالم ضيقة ملتفة تذهب صعوداً إلى معرض اللوحات حيث استطاعا من هناك رؤية قاعة الطعام تحتهما.

وصاح كولين «ها هو انظري».

واستدارت جان ونظرت. في أحد أطراف المعرض كان هناك لوحة ضخمة لرجل في ثياب اسكتلندا. ولحقت بكولين، ووقفت أمامها تماماً.

القماش المقلم بالأحمر والأزرق لتنورته الأسكتلندية أظهر لجان على الفور أنه من عائلة ماكلاكن، وشعرت بالإثارة تنبعث في داخلها. وببطء رفعت نظرها إلى كيس الفراء الملون بشراريبه الفرو، إلى اليد الرشيقة التي ترتاح على مقبض سيف، وإلى الأزرار الالماسية للسترة المخملية - إلى البروش الكبير الاسكتلندي الطراز الذي يمسك بقطعة القماش على كتفه، ثم إلى الذقن المستدير العنيد، والفم الرفيع الثابت، والأنف المعقوف النافر، والحاجبان المتعجرفتان، والشعر الغجري الأسود المربوط عند رقبته، ثم عادت إلى عينيه اللتين كانتا تحدقان بها بازدراء ولم تكونا زرقاوان بل سوداوين. كانت تحس بأن كولين كان ينتظر بشوق رد فعلها.

- حسناً؟ما رأيك؟الا يشبه دايفدسون؟

- هناك تشابه. من النظرة الأولى يبدو دونكان، ولكن نظرة ثاقبة ثانية تجد العديد من الفروقات. ذقنه مختلفة، وعيناه بلون مختلف.

- أجل.. هناك فروقات إذا حدقت بانتباه. لم أكن أعرف لون عيني دايفدسون. ولكن هناك تشابه كاف يجعل أي إنسان يربط بينهما. أليس كذلك؟

- أعتقد هذا.

- لنرى إذا كان مكتوباً عليها شيء.

وانحنى إلى الأمام ونظر إلى الكلمات تحت الرسم.

- هوغ ماكلاكن، الزعيم السادس عشر للقبيلة، لقد قتل في معركة كولودن، وصودرت أملاكه ثم بيعت إلى دايفد دونكان الذي أصبح مالك قصر دونمر... إذاً هذا ما كان. سيكون من الجيد رؤية رد فعل الكولونيل عندما يلتقي وجهاً لوجه مع دونكان دايفدسون... ومال

ثانية ليقرأ الوصف تحت الصورة، وهو يحرك فمه بالكلمات بصمت، بينما ظهرت له فكرة فكرت بها هي أيضاً.

ـ دايفد دونكان... دونكان دايفدسون... هل تفكرين بنفس ما أفكر؟ أم أن هذه صدفة؟

وقالت جان وهي تفكر بالاسم الآخر، دايفد غارث:

ـ لا أعلم... هذا غريب جداً. هل كل اللوحات هنا لعائلة ماكلاكن؟

ـ لا أعتقد هذا. إنهم يبدون من آل دونكان. لنلقي نظرة عليها.

ومرا بصمت على جانبي المعرض، ينظران إلى الوجوه المرسومة للرجال والنساء والأولاد. بعض اللوحات كانت جيدة، ولكن معظمها كان في حالة تعسة، يظهر بها أناس عديمي الحيوية بعينين جامدتين. وعندما وصلا إلى الناحية الأخرى من المعرض، شاهدا لوحة «الزعيم» حيث لاحظا أنها رسمت على يد فنان يعرف معنى الحياة.

وتظهر تلك اللوحة رجلاً مع إمرأتين، إحداهما كان من الواضح إنها زوجته، والاخرى أصغر بكثير ربما تكون ابنته. عينا الرجل والمرأة الشابة استرعت انتباه جان. لقد كانت زرقاء، بصفاء زرقة البحر في يوم بارد مشمس. وقرأت الوصف تحت الصورة. وعلمت أن الرجل هو جيلبرت دونكان، سيد دونمر، وإن المرأة هي زوجته جين والشابة ابنته فيونا.

فيونا دونكان، التي تزوجت هوغ ماكلاكن، وابنهما دايفي كان له عينان زرقاوان وشعر أسود.

وحدقت مرة أخرى في الوجه المرسوم للمرأة الشابة. كان جميلاً متصلباً، ومتوج بهالة من الفخامة على شكل شعر أشقر. نظرة العينين الزرقاوين كانت باردة وجميلة، وانحناءة فمها الجميل مغرية. ولم يكن من الصعب تصور أن تهرب مثل هذه الفتاة متحدية والداها مع متشرد اسود الشعر والعينين، الذي كان يحمل اسم الزعيم المتوفي منذ زمن بعيد لقبيلة ماكلاكن.

وقالت جان وهي تلحق بكولين على السلالم الملتوية:

ـ يجب أن أحضر دونكان إلى هنا لأريه اللوحة.

ـ هذا سهل، عندما نتناول الشاي سألهي شقيقتك بينما تحضريه إلى هنا.

في قاعة الطعام حيتهما السيدة لانغ بلباقة، قائلة إنها مسرورة لرؤية كولين ثانية وسألت عن ايلين ودونكان. وقال كولين: «ها هما هناك سيدة لانغ».

كان من الواضح أن ايلين ودونكان كانا منشغلان ببعضهما حتى انهما لم يلاحظا أن السيدة لانغ تنتظر لتتحدث معهما، ولذا ذهبت جان لتحضرهما. وبينما هي تمر بين الجموع رأت اندرو يدخل الغرفة وتطلع حوله ورأى ايلين تتحدث إلى دونكان، وعلا قسمات وجهه تعبير غريب شرير تقريباً. وببطء بدأ يشق طريقه نحوهما، ووصل إلى جانبهما في نفس الوقت الذي وصلت فيه جان، ولمست جان ذراع دونكان فاستدار ونظر إليها فهمست له:

ـ هناك شيء أريدك أن تراه. إنه في معرض اللوحات.

ومن طرف عينيها شاهدت ايلين ترفع يدها لتخفي الندب بينما كان اندرو يجذبها لتستدير وتواجهه. وأطل الاهتمام في عيني دونكان ولكنه تردد:

ـ ألا تستطيعين الانتظار؟ كنت سأقول للوكيل عن فكرتي عن المتسللين.

ـ ليس الآن، انظر إليهما، من الافضل تركهما لوحدهما.

واستدار دونكان، ثم نظر إلى جان بلطف وتمتم:

ـ لقد نجح الأمر! اهتمامي بايلين أيقظ النمر النائم في داخل الوكيل. يبدو أن روح المنافسة أيقظته، وربما بدأ العمل الآن.

عندها، لاحظا أن ساندرا قادمة نحوهما وتعبير صارم مصمم على وجهها. وقالت جان:

ـ ربما كنت تأمل ببعض العمل من شخص آخر أيضاً.

ـ كنا نتهرب منها أيضاً... ماذا كنت ستريني؟

ـ اللوحة إنها تشبهك تماماً. تعال قبل أن تصل ساندرا.

. عند خروجها من القاعة التقيا الكولونيل وهو يدخل. وتعرف على جان فوراً وحياها بابتسامة، وتحول نظره إلى دونكان، واختفت الابتسامة فوراً وحل مكانها تعبير بعدم التصديق كان مماثلاً تقريباً لذلك التعبير الذي ظهر على وجه زوجته يوم التقت بدونكان. وصاح الكولونيل «يا إلهي!» وامتدت يده إلى جيب سترته ليخرج نظارته ويضعها على عينيه ويحدق بدونكان متفحصاً «من أنت بحق الشيطان؟».

وكانت ساندرا قد وصلت لتقف الى جانب دونكان وتدس يدها بذراعه بطريقة امتلاكية، وقالت:

ـ هذا دونكان دايڤدسون يا أبي، أتذكر أنني وأمي أخبرناك عنه.

ـ أوه... أجل أتذكر. كيف حالك، أنت من المهاجرين، وتريد تقفي أثر اسلافك.. دايڤدسون هه؟. اخشى أن تكون في المقاطعة الخاطئة. فهذه القبيلة هي في القسم الشمالي الشرقي من البلاد... امتأكد أن هذا هو اسمك؟

وكان يحدق بدونكان وكأنه لا يصدق عينيه، ونظر دونكان الى جانبه نحو جان وغمزها وهو يقول:

ـ لا، في الواقع لست متأكد أن هذا اسم عائلتي.

وصاحت ساندرا متعجبة:

ـ أوه.. دونكان، كيف لك أن تقتفي أثر عائلتك إذا لم تكن واثقاً من الاسم؟

وقال الكولونيل بطريقته الجافة الصارمة:

ـ سيكون من الصعب تقفي أثرهم، ولكن ليس من الضروري أن تعرف اسم العائلة، ربما هناك معلومات أخرى قد تفي بالمراد، مثلاً، من أي جزء من استراليا أنت؟

وبدا على دونكان التردد، واخذ ينقل نظره من الكولونيل الى ساندرا. وبدت ابتسامة خفيفة ساخرة فوق فمه وقال:

ـ لقد ولدت في مكان يدعى كومبارمولا في نيوساوث وايلز.

ـ يا الهي! لقد كنت هناك مرة، في الواقع اقمت في مزرعة ضخمة للاغنام هناك لعدة أيام. إنها ملك لرجل اسمه بنيت. لقد سحرت بذلك المكان. ولم استطع سوى أن أقارن السكان هناك بالمجتمعات التي كانت موجودة في هذه البلاد، ومالك المزرعة كان مثل مالكي الأرض القدامى الذين كانوا هنا، مسؤول عن شؤون كل الناس، الفارق الوحيد أن الجميع هناك كانوا سواسية، وشعرت أن كلمة صاحب المزرعة لم تكن مسموعة، استطيع القول إنك تعرف ما أعني.

ونظر الكولونيل نظرة حادة الى دونكان الذي قال بهدوء:

ـ أعتقد أنني أعرف.

ـ حسناً... دعني أفكر... بما أنني عرفت أين ولدت أظن أن الخطوة الثانية أمامنا هي معرفة أي شخص هاجر من هنا إلى ذلك الجزء من استراليا ثم نتابع من هذه النقطة، هل عندك فكرة عن عمل أبيك؟

ـ أعتقد أنه عامل خيم.

ـ هاه... ليس من السهل متابعته، لأنهم من النوع الذي يتنقل من مزرعة إلى أخرى. وماذا عن جدك لأبيك؟

ـ كان يعمل في جز صوف الخراف.

وتنهد الكولونيل وهز رأسه.

ـ هذا صعب... صعب جداً... فهم قبيلة متنقلة أيضاً.

وحدق بدونكان ثانية، ثم تطلع في الغرفة، وأزاح نظارته، ووضعها في علبتها وأعادها إلى جيبه.

ـ أريد أن احدثك على انفراد أيها الشاب، حالتك أثارت اهتمامي لعدة أسباب. لنذهب الى مكتبي الآن؟ فهناك أوجه شخصية حول الموضوع أود مناقشتها معك، هل لديك وقت؟

- أجل لديّ وقت.
- حسناً، تعال معي إذاً.
وسألت ساندرا والدها:
- هل أقول لأمي إن عندنا ضيف على العشاء؟
- هذه فكرة جيدة.
وقال دونكان بنعومة: «شكراً لك» وأضاف لجان وحدها هامساً «سأرجع لوحدي» وهمست له جان «تذكر أن لا تضع قدميك تحت الطاولة» وأجابها وهو يرمقها «لا تقلقي يا فتاة، هذا لن ينطبق عليّ هذه المرة».
ماذا يعني بقوله؟ هل يعني أن التحذير لا ينطبق عليه لأنه يحب ساندرا ويريد أن يتزوجها؟
وقفت جان لوحدها، وقد غادر الناس القصر ولم يبق في الساحة سوى سيارتها، وترددت في أن تذهب الى منزل اندرو لتبحث عن شقيقتها إيلين، وخرجت ساندرا مسرعة، وتوقفت ثم نظرت حولها وقالت: «هل ذهب كولين؟ كنت أبحث عنه في كل مكان، أين كنتما؟».
- في حديقة الورود.
- كم هذا رومانسي، يجب أن تحذري منه، إنه ذئب، لديّ أسباب لمعرفة هذا، وأنا أتذكر كيف تصرف معي يوم اختبأنا في الاسطبل.
- هل كانت مقاطعتك له حتى اليوم بسبب ما حدث هناك؟
- هل تجرأ على قول ما حدث؟
- لا.. ليس بالضبط. لم يقل لماذا؟
وظهر تعبير عن الراحة في وجه ساندرا، وتبعه تعبير إحراج.
- لم يكن لديّ فرصة للتحدث معه، لقد سافرت إلى سويسرا بعد الحفلة. كم كنت غبية يومها في الثامنة عشر. تقعين في الحب وعندما لا تلاقين تجاوباً تعتقدين أن العالم قد انتهى. هل أنت ذاهبة الى المنزل الآن؟

- اعتقد هذا...
واستدارت ساندرا وعادت الى داخل البيت وهي تبتسم وتقول:
- وشكراً لأنك اتيت بدونكان معك، أبي مفتون به، الأمر مثير جداً.
وصعدت جان بسيارتها وأدارتها وابتعدت نحو الطريق، وفكرها مشغول بكل ما علمت به ذلك اليوم.
لقد اعترف لها كولين أنه يحب ساندرا وبأنه سيفعل أي شيء ليجعل دونكان يغادر الوادي. وقالت ساندرا إنها أحبت كولين، عندما كانت في الثامنة عشر، وإنها شعرت بالألم عندما لم يراسلها. ترى لماذا لم يراسلها؟ هل عارض أهلها ذلك؟
مسكينة ساندرا.. مسكين كولين... وأشفق قلب جان الكريم المسامح عليهما، لو أن دونكان لم يظهر ويشد انتباه ساندرا اليه، لكان حبهما قد تجدد، لو أن دونكان غادر الوادي فوراً لربما عادا الى بعضهما. وعندما وصلت الى منزلها كانت فكرة واحدة عالقة في ذهنها: فهي وحدها، قادرة على جعل دونكان في وضع يضطر فيه إلى مغادرة الوادي ودخلت إلى مطبخ المنزل لتجد كريس هناك، لقد اتت بحالة من الإثارة لتخبرهم عن وصول بعض الناس الى القرية بعد ظهر ذلك اليوم، وعندما دخلت جان توقفت كريس عن الكلام لتسألها:
- هل دونكان معك؟
- لا.. لا يزال في القصر يناقش شيئاً مع الكولونيل.
وهزت كريس رأسها وكأنها تعرف كل شيء عن دونكان وعن الكولونيل وعن موضوع نقاشهما.
- أجل... يجب التمهيد للأمر قبل فعل أي شيء.
قالت هذا بطريقة جعلت الجميع يحدق بها، وقالت شينا:
- قبل فعل أي شيء؟ أوه يا كريس أنت تثيرين الغضب! هل تحاولين إثارة شهيتنا بملاحظاتك هذه. توقفي عن عبثك وقولي ما تعرفينه.

- إن الأمر مثير ولا أعلم من أين أبدأ. حسناً.. سأقول لكم.. إنهم سيصورون فيلماً عن الوادي.

- أي نوع من الأفلام.

- لا بد أنه عن الطبيعة. كان معهم صور رائعة عن التلال والوادي والطيور.

- وعما سيتحدث الفيلم؟

- عن سلالة مهاجر. سوف يظهره الفيلم يتقفى أثر أسلافه إلى اسكتلندا حتى يصل إلى الوادي حيث ولد المهاجر الأصلي.

وشعرت جان بالرعشة تسري في جسدها، وقالت شينا بحدة:

- ليكتب المرء عن الوادي يجب أن يعيش فيه ويعرف كل شيء عنه، من يكتب القصة؟

- كاتب اسمه دايفد غارث، لقد كتب عدة قصص وثائقية. يقولون إنه يعيش في الوادي منذ عدة أسابيع الآن.

وقالت شينا:

- ولكن لا يوجد أحد بهذا الاسم هنا.

وقال جون بنعومة:

- يبدو أنه لا يفوتك شيء.

واستدارت شينا لتنظر اليه ثم إلى كريس، تحاول قراءة التعابير على وجهيهما، بينما شعرت جان بالسرور لأنها لم تضطر إلى الإخلال بوعدها لدونكان.

وقالت شينا:

- انتما تحاولان جر رجلي... انتما لا تقصدان أن دونكان دايفدسون هو دايفد غارث الذي تتكلمون عنه؟

الفصل السادس

وشرحت لهم جان لماذا تركت ايلين في القصر وفي الحال نسي الجميع دونكان وهم يناقشون إمكانية حصول زواج في العائلة قبل نهاية الصيف.

ووصل ايلين واندرو بعد العاشرة بقليل، ووميض متشابه على وجهيهما مع ابتسامة خفيفة، وعلمت جان انهما حلا المشاكل بينهما وتوصلا الى بعض الترتيبات حول مستقبلهما معاً.

ولاحظت شينا ذلك ايضاً، ووضعت الحياكة من يدها، وتقدمت لتقبلهما معاً. وقالت لهما موبخة بطريقتها الحادة:

- لقد تأخرتما كثيراً في تقرير رأيكما. ألن تباركهما يا جون؟

- ولماذا أفعل؟

وتمتمت الجدة أغنس «لأنهما سيتزوجان ارى ذلك في وجهيهما. تعالي يا ايلين لأقبلك». فرد عليها جون وهو يغمز بعينه:

- حسناً، إذا كنت تقولين ان ذلك بادٍ في وجهيهما فيجب ان يكون هذا صحيحاً. لم أعرف انك تخطئين باحكامك.

وهناهما الجميع، ثم بدأوا يناقشون الخطط للزواج، ولكن ما أن مر وقت قليل حتى بدأت شينا تخبرهم عن ان دونكان هو كاتب. فقالت ايلين:

- لقد ظننت ان هناك شيئاً حوله لم يكن ظاهراً. فهو يعرف الكثير

حول المسرح. لقد أوصلناه من القصر الى منزله، وبدا مصدوماً قليلاً، واعتقد ان لديه انباء سيئة.

وقال اندرو: «لقد قال انه يعتقد ان المتسللين لديهم سيارة تشبه سيارة ساندرا، وطلبت منه مراقبتهم».

واتخذت المحادثة اتجاهاً آخر، وشعرت جان، وهي تصغي، بشعور غريب يحثها على الذهاب الى تيغ اوسدين وتحذير دونكان بأنه في اليوم التالي سيعلم الوادي كله أنه كاتب وبأنه خدع الجميع بأنه دونكان دايفد سون. وإذا لم تحذره سيعتقد انها حنثت بوعدها له، ولا تتحمل ان يظن بها هكذا.

وبينما هي تقف، نظرت اليها جدتها، فذهبت وهمست لها أين هي ذاهبة ولماذا. فهزت الجدة رأسها بتفهم وضغطت على يدها. وقالت:

- اذهبي برعاية الله، يا صغيرتي. فالرجل يحتاجك هذه الليلة.

وخرجت عبر بوابة باحة المزرعة تصعد التل في طريقها الى بوابة الجدار، بوابة الحب الخضراء، كما تصر جدتها ان تسميها. واختفى القمر وراء الغيوم، واصبحت الرؤيا مهزوزة، واستمر الحال طوال طريقها، الضوء والظلمة يتناوبان. إنها ليلة جيدة أمام المتسللين.

وظهر القمر من بين الغيوم، واستطاعت جان ان ترى الجدران البيضاء للكوخ، ولم يكن هناك أي ضوء في النوافذ، وتساءلت ما إذا كان دونكان قد آوى إلى فراشه، وبينما هي تتقدم اختفى القمر ثانية وشعرت بارتجاف غريب في ظهرها، وكأنه التحذير الأولي بالخطر.

ووقفت في مكانها، واصغت، كان هناك صوت، غير عادي، نوع من صوت عراك أمامها في الظلام. وتحركت نحو الصوت. واستطاعت ان تسمع التنفس الثقيل الحيواني وصوت الشخير الذي يرافق العراك.

وظهر القمر يرسل نوراً ساطعاً، وهناك كان يوجد حيوان أمامها، حيوان متوحش له عدة أرجل وعدة سواعد وثلاثة رؤوس! ورفعت جان يدها الى فمها لتمنع الصراخ.

لم يكن هذا حيوان. فعلى ارض الممر أمام المنزل كان هناك ثلاثة رجال يتصارعون، اثنين منهم يحاولان تثبيت الثالث إلى الارض. واضيف صوت ثالث على الاصوات الأخرى، صوت قدم تركل اللحم والعظام. وذهب عنها الرعب والصدمة، وحل مكانها شعور جديد دفعها الى الامام وهي مستعدة للمعركة. وصرخت:

- توقفا! اتركوه وشأنه.

وتوقف الرجل الذي يركل بقدمه، ولم ينتظر حتى يرى من كان يصرخ وهرب نحو الطريق وهو يصرخ للرجل الآخر، الذي كان يلملم نفسه، ولم ينتظر هو الآخر بل اسرع بالفرار في نفس الوقت الذي اختفى فيه القمر وراء الغيوم.

- انتظرا!

وصرخت جان بغباء وزركضت وراءهما. وما لبثت ان انقطعت انفاسها فتوقفت، وسمعت صوت محرك سيارة يدور. ثم تحركت السيارة مبتعدة، وهي مسرعة نزولاً على الطريق واضواءها مطفئة.

واستدارت جان عائدة الى حديقة الكوخ. وهي خائفة مما قد تجده هناك، ولم تشاهد سوى كومة جالسة على الأرض.

- دونكان.. دونكان.. هل انت بخير؟ الم احذرك منهم؟

وجثت على الارض غير آبهة بما تلبس. ووضعت ذراعاها حوله، وضمته الى صدرها، وهي تجس وجهه بأصابعها بحثاً عن جروح، ووجدتها وشعرت بالدم اللزج تحت اصابعها.

- لقد جرحوك! هل تستطيع الوقوف؟

ولم يرد عليها، ولاحظت انه مستلقٍ في حضنها دون حراك، هل هو غائب عن الوعي؟ خوفها من ان يكون المتسللان قد ضرباه على رأسه بسلاح ما جعلها ترتجف، ودندنت بصوت خفيض كالبكاء:

- اوه دونكان، يا حبيبي..

واستخدمت في تلك اللحظات القلقة كلمات اسكتلندية قديمة كانت

جدتها تقولها دوماً لوالدها: «ماذا فعلوا بك».

ـ ماذا قلت؟

وجاءها صوته مكتوماً لأنها كانت تمسك برأسه على صدرها، ولكن سماعها له أعاد الفرح اليها.

ـ كنت أسأل ماذا فعلوا بك؟

ـ اوه.. لقد ظننت انك قلت شيئاً آخر.

لقد عاد الى طبيعته، وسحب نفسه عنها ووقف على رجليه، وترنح قليلاً، واسرعت للإمساك به. وقالت بلطف:

ـ ادخل الى المنزل واجلس وساهتم بجروحك.

ـ جروح؟ إنها بضع خدوش، وربما عين سوداء، هذا كل شيء. من المؤسف انك صرخت هكذا، لو فكرت قليلاً لبقيت صامتة وعدت الى منزلك لإحضار ابيك واندرو، كنا نحن الثلاثة استطعنا التغلب على المتسللين. لقد هربا الآن ولن نعرف من هما.

وبدا غاضباً منها، وأضاء عود ثقاب ليشعل القنديل، وردت عليه بغضب:

ـ الى ان أصل إلى المزرعة واعود باندرو وابي، كنت ستموت. أليس لديك عقل، لتتعرض لمتسللين بهذا الشكل؟

وعلى ضوء القنديل شاهدت جرحاً ينزف على خده الايمن وبدأت عينه تتورم. وخلع سترته ليظهر قميصه ممزقاً، وأحد اكمامه قد نزع من مكانه. وحاولت الإسراع اليه لتمسك بذراعه ولكن النظرة الساخرة في عينيه أوقفتها. وقال:

ـ انظري يا فتاة.. لم أهاجمهما، بل هما هاجماني. لقد كنت أعرف انهما موجودان، لأن سيارتهما التي تشبه سيارة ساندرا كانت متوقفة بعيداً عن الطريق. وتقدمت بهدوء ظانا انني قد افاجئهما، واصطدمت بهما، ثم بدأ الهجوم علي.

ـ لقد حذرتك.. هل تجلس الآن وتتركني أغسل وجهك، فالدماء تنزف وتلوث قميصك.

ونظر الى القميص بدهشة وقال:

ـ لم يبق شيء منه ليتلوث، سأرتدي واحداً آخر.

ـ لن تتحرك قبل ان ارى الجرح، وانظر الى عينك واتحسس رأسك. لقد كنت غائباً عن الوعي في الحديقة، ولن أندهش لو ان رأسك أصيب باهتزاز، للطريقة التي تتصرف بها!

ـ حسناً، سأجلس والعبي دور الممرضة. من الغريب كيف ان منظر الدماء على وجه الرجل يدفع المرأة لأن تصبح ممرضة.

ـ هل تتوقف عن الهذيان وتجلس.

ـ حاضر ايتها الممرضة.

وجلس فوراً على الكرسي. واغمض عيناه، ومالت رأسه الى الوراء، وقد اصبح وجهه شاحباً.

ووضعت ابريق ماء فوق النار ليغلي، وأسرعت الى الخزانة لتحضر حقيبة الاسعافات الأولية. وعندما غلت الماء نظفت الجرح ووضعت عليه الدواء. وأبقى دونكان عيناه مغمضتين دون ان يتكلم.

واخذت تبحث في رأسه عن جروح فلم تجد بل وجدت كدمة بسيطة. وقالت له بلهجة آمرة: «اخلع قميصك».

وفتح عيناه وقال بحدة «مهلك يا ممرضة».

ـ أرجوك يا دونكان، أنا لا أمزح. قد تكون مصاباً بجروح أو كدمات أخرى تحتاج للعناية، أحد الرجلين كان يركلك، أليس كذلك؟

ـ أجل...

وخلع قميصه. وحاولت جان أن تحتفظ بهدوءها، ولمست كدمتين ظهرتا عند أسفل ضلوعه. وأجفل، ولكنه لم يقل شيئاً، وضغطت عليهما بشدة.. وقالت:

ـ لا أظن ان هناك كسر أو رضوض. هل تستطيع التنفس بسهولة؟

ـ ليس كالمعتاد.

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد أخذت انفاسي، فيداك باردتان.

وسحبت يديها فوراً ووقفت وهي تمتم:

- اوه.. أنا آسفة.. أين أجد قميصاً آخر.

- سأحضر واحداً..

- لا.. لن تفعل.. ستجلس هنا الى ان تشرب فنجان شاي. والآن أين أجد قميصاً.

- في الغرفة الأخرى..

وأحضرت له القميص وتركته ليرتديه، وحضّرت له الشاي. وجلست على مقعد إلى جانبه. فسألها:

- ما أتى بك إلى هنا؟.. النظرة المتنبئة؟

- أجل بطريقة ما. لقد قالت جدتي إنك ستحتاجني الليلة. وذكر اندرو أنه طلب منك الانتباه للمتسللين. وانا...

وتوقفت، غير قادرة على ان تقول له إنها كانت خائفة عليه لأنها تحبه. تحبه! ورقصت الكلمة كالشعلة في ذهنها. منذ متى أحبته؟ منذ أول مرة في هذه الغرفة شعرت روحها بروحه ولم تكن تريد أن تترك الغرفة المليئة بالدخان لتخرج الى البرودة في الخارج.

- لديك حيلة رائعة في التوقف في منتصف الجملة عندما تكونين على وشك قول شيء مهم. وقد بدأت أعتقد انك تفعلين هذا متعمدة لتتركيني أخمن، وخلال توقفك تغيرين رأيك بما ستقولينه.

والتقت عيناهما. وبدت عيناه أعمق في ضوء القنديل، وأردف:

- هيا اكملي كلامك.

- كنت خائفة.

- عليّ؟

- أجل، كنت خائفة أن يؤذيك المتسللون.

- هل هذا هو السبب الوحيد لقدومك؟

- لا... فلديّ شيء أقوله لك.

وأخبرته بهمس عن الاشخاص الذين وصلوا الى الفندق، وكيف ان

كل الناس ستعرف قريباً انه ليس دونكان دايفدسون. رجل الاعمال الغريب، ولكن دايفد غارث الكاتب.

وتمتم بضع شتائم للقادمين، واستدارت جان لتنظر اليه بدهشة ونظر اليها قائلاً:

- إنها كلمات سوقية. هذا كل ما استطعت ان أقوله لأعبر عن غضبي.

- هل ابكروا بالحضور؟ ألم تنهي القصة بعد؟

- بطريقة ما انهت القصة نفسها اليوم في القصر، نهاية رائعة، لم أكن استطيع التفكير بها. في الواقع، منذ غادرت القصر وأنا أتجول وأنا ضائع لا أعرف ما هو حقيقي وما هو زائف. لقد افادتني هذه المعركة مع المتسللين، على الأقل كانت حقيقية، كل لكمة وكل ركلة فيها.

- وماذا حدث في القصر؟

- لقد اكتشفت اكتشافاً مذهلاً، لقد اكتشفت ان هناك امكانية كبيرة أن أكون أنا وساندرا ابناء عم من نوع ما.

- ولم يظهر لك هذا من قبل؟

- لا.. ولماذا؟

- بعضنا كان يعتقد انك اتيت الى وادي ديرك لأنك كنت تعرف أن قبيلة ماكلاكن كانت تعيش هنا، وأنك كنت تأمل بتقفي أثر علاقتك بهم.

- لم أسمع بهذا الاسم إلى أن ذكرتموه لي. أتيت الى هنا لأن آثار ذلك الغنام العجوز الذي كنت أعرفه تقود إلى هنا. ووعدته أن اتقفاها عبر العالم إلى اسكتلندا. أرى أنني يجب ان ابدأ منذ البداية.

- أجل أرجوك.

- في يوم من الايام. كان هناك امرأة شابة تدعى هيلين مورتون كانت معلمة مدرسة في مكان يدعى كومبارمولا، والتقت بشاب اسمه توم غارث، الذي كان الابن الوحيد لراعي ابرشية محلية. وفي أحد الايام

كانت تزور مزرعتهم عندما التقت بشاب آخر ووقعت في حبه بعنف وكان عاملاً متجولاً يعمل هناك. فهربت معه إلى ملبورن وتزوجته.

- أوه.. ثم تزوجت فيونا دونكان هوغ ماكلاكن.

- أجل ما عدا أن النتيجة كانت تراجيدية، فلم يمضِ على زواجهما الكثير حتى قتل زوجها الشاب بحادثة. وعادت هيلين إلى كومبارمولا، ورحب بها توم غارث وساعها ثم تزوجها.

- وولدت أنت وترعرعت وانت تظن أنك ابن توم غارث.

- لقد قلت عنك دائماً انك دقيقة كالابرة. هذا صحيح، واعتقد هو أنني ابنه ايضاً: لقد رباني حتى أرث يوماً ما المزرعة، ودربني جيداً. ولكن بمضي الزمن وجدت نفسي أتمرد، حتى أنني أحياناً كنت أهرب الى الغابات. فقد ورثت طبيعة أبي التواقة للتجول. ومن والدتي ورثت اهتماماً بالكتابة. واختلفت مع توم كثيراً إلى أن تركني أفعل ما أشاء. وعندما اصبحت في السابعة عشر من عمري ذهبت الى سيدني، وبدأت أتعلم كيف أكتب بالطريقة الصعبة، فقد عملت في إحدى الصحف، وبينما كنت هناك مرضت أمي. وعدت إلى البيت لأراها، ولكن كان لديها الوقت الكافي لتقول لي إنني لست ابن توم. وظننت أنها تعني دايفدسون.

- هل علم توم غارث أنك لست ابنه؟

- أجل كانت قد قالت له ليتركني وشأني لأختار مستقبلي. وتركت لي امي بعض المال، ولعلمي أنني لا أرتبط بتوم سوى بالاسم وان شقيقي الاصغر من امي بوب هو المناسب أكثر، تركته هناك لأسافر وأستمر بالكتابه.

- ولكن ما دخل جزاز الصوف دايفي بالقصة؟.

- كان يأتي عادة في المواسم كل سنة، وكانت أمي تهرع اليه لتسلم عليه وتتحدث معه، وكان يحادثني كثيراً. واخبرني عن رغبته في العودة إلى وطنه. وطلب مني أن أحضر إلى هنا يوماً ما ووعدته بذلك. وبعد

ذلك لم يعد يأتي إلينا. واعتقدت إما أنه أصبح عجوزاً جداً أو أنه قد مات. وعندما غادرت استراليا، لأتي إلى هنا، لم يكن ذلك بسبب الوعد بل بسبب الفيلم الوثائقي.

- وماذا ذكّرك بالوعد؟

- أظن أنه فيل جيبسون مخرج الفيلم، لقد أخبرته عن دايفي، وخطرت له فكرة تقديم القصة عبر نظرة استرالي مهاجر يقتفي أثر أسلافه إلى اسكتلندا، وهكذا عدت لتقفي أثر دايفي ووجدت مادة مثيرة للفيلم.

- وكم استغرقك ذلك؟

- سنتين، ولكن في نظري منذ أن غادرت كومبارمولا بعد وفاة والدتي. ولم يكن لديّ فكرة أنني بقدومي إلى هذا الوادي سأصبح متورطاً شخصياً. وكنت أنوي مغادرة الوادي قبل وصول طاقم الفيلم وأن لا يعرف أحد لماذا اتيت الى هنا. ولكن كل شيء تغير الآن.

- أتعلم أن هناك ثلاثة اشخاص إضافة لجدتي لا يزالون أحياء ويتذكرون دايفي، ويعتقدون أنك تشبهه.

- ثلاثة؟ إذاً أنت لم تضيعي وقتك، فقد بحثت عن أجوبة لتساؤلاتك؟ سيكون الكولونيل منزعجاً جداً إذا انتشرت المعلومات في الوادي.

- ولماذا؟ هل قال لك؟ وهل أراك اللوحة؟ ما رأيك بها؟.

- أعترف أن هناك بعض الشبه، ولكنها ليست دليلاً، ولا صورة جيلبرت دونكان وابنته كذلك، فقد أراني الكولونيل رسالتين من دايفي ماكلاكن. كتبهما لجدة جيلبرت، واحدة من نوفاسكوتيا تقول ان هوغ ماكلاكن توفي وهو يعمل في قطع الأخشاب، والأخرى بعدها بسنوات من مالبورن تقول ان دايفي له ابن اسماه دونكان، والرسالتين ليستا برهاناً بأنني حفيد دايفي، ولكنني اقلقت الكولونيل وأحرجته. وعندما أخبرته عن السبب الحقيقي لقدومي إلى هنا رفض أن يصور الوادي في

أي فيلم، وأنه إذا خالفت الشركة رغباته سيقاضيها.

وجلست جان بصمت، وهي تحدق في النار، لقد حزرت تماماً لماذا قلق وأحرج الكولونيل لوجود دونكان في الوادي. فعلى الرغم من أن ساندرا ودونكان ليسا ابناء عم قريبين، إلا أنه خاف من أن يرتبطا بالزواج، وقال دونكان فجأة:

ـ لقد تأخر الوقت، وآن لك أن تعودي إلى المنزل، سأسير معك حتى البوابة، وأراقبك حتى أتأكد من أن الجن لن يخطفوك.

ـ لن تذهب معي.. فأنت لست بحالة تسمح لك بالخروج. ستذهب الى الفراش وسأجلس هنا في المطبخ طوال الليل في حال احتجت الى تمريض.

ووقف على قدميه ونظر إليها، ووقفت هي أيضاً ونظرت إليه، وقال:

ـ لا... ستذهبين الآن إلى البيت ولن أمرض ولن أحتاج لتمريض.

ـ أرى أنك لا تثق بي..

ـ أنا لا أثق بنفسي.. على كل أنا لست مريضاً.

ولم تستطع الرد، فقد وضع يده على فمها، وباليد الأخرى أحاطها وضمها اليه، ومضت فترة طويلة دون كلام. وبعدها قال دونكان ضاحكاً:

ـ أعرفت الآن لماذا لا أجروء على تركك هنا الليلة؟

ومالت جان عليه ووضعت رأسها على صدره لتسمع دقات قلبه وهي تفكر بفيونا دونكان وهيلين مورثون، وكلاهما احبتا بجنون حتى أنهما هربتا من الراحة في منزلهما وعائلاتهما لتذهبا مع من تحبان، ولو كان من احبتا مثل دونكان، فقد فهمت لماذا.

وفتح الباب، ولم تعارض جان، فهو لا يريد رفقتها، وضمها فقط ليخيفها، ولم يكن يعلم أنه بدلاً من إخافتها قد خلق شوقاً في داخلها

لرفقته، وركضت خارجة من الكوخ دون أن تقول كلمة ولم تتوقف عن الركض إلى أن وصلت الى تيغانكوراش.

ولم تنم ليلتها، فقد بقيت تفكر بأن دونكان قد يغادر دون أن تراه ثانية. واستفاقت باكراً لتخرج عبر الحقل الى بوابة حقله، وفي ضوء الصباح الباهت بدا الكوخ نائماً، وذهبت رأساً إلى الباب، ورفعت المزلاج ودخلت، وبينما هي تقفل الباب أدركت أن هناك شيئاً ناقصاً الآلة الكاتبة وأوراق الطباعة قد اختفت عن الطاولة، ومع ذلك كانت الكتب هناك.

وبسرعة خطت داخل الغرفة الأخرى، كان السرير فارغاً ولم يستخدم. واختفت حقيبة الثياب، والجوارير في الخزانة كانت فارغة.

لقد ذهب، تاركاً بضع كتب، وكوخاً أعيد تصليحه، وبعض الزرع في الحقل، كشهود على وجوده في الوادي خلال الأشهر القليلة الماضية.

في الأسابيع التي تلت انهمكت جان وهي مسرورة بالعمل الشاق في جز صوف الخراف، كانت هذه المناسبة من أهم المناسبات الاجتماعية في الوادي، إذ يأخذ كل مزارع خراف دوره في استضافة كل المزارعين الآخرين وعمالهم عندما يأتون لمساعدته في جز صوف خرافه.

وفي الوقت الذي انتهى فيه الجز، كان الصيف المكتمل قد كسا الوادي بالوان مختلفة خضراء. وقرر جون ريد، بعد خسارته لعمل دونكان معه، أن يستخدم تلميذاً من كلية الزراعة، كان شاباً اسمه بيتر بوتشان. وكان تواقاً لتعلم كل ما يقدر عليه، وتمتعت جان بالعمل معه.

بعد زواج إيلين وأندرو، عادت الحياة الى طبيعتها في المزرعة، ولكن للمرة الأولى في حياتها شعرت جان بعدم الاستقرار، وعدم الرضى بالحياة في الوادي، وكانت تعرف السبب: فحياتها قد اقلقها غريب، والامكنة التي تحبها تذكرها به، كانت تجده في كل مكان: في الملجأ القديم حيث التجأت معه في تلك العاصفة وأحاطها بذراعيه

طلباً للدفء. والى جانب حجر كبير من أحجار الجدار كانت تتمشى معه بقربه، وعندما يصلان الى البوابة الكبيرة في الجدار كان يفتح البوابة ويقفلها لتفصل بينهما ويضحك عليها وهو متكىء على قضيبها العلوي. الشخص الوحيد الذي ذكره كان جدتها، التي كانت تسأل دوماً متى سيعود دايفي إلى الوادي.

ولكن ماذا عن دونكان؟ وهل تستطيع التفكير به باسمه القانوني دايفد؟ أم سيبقى على الدوام دونكان دايفدسون الذي أحبته وحطّم قلبها؟ وهل سيعود؟ أم أنه مشغول بقلب جديد في مكان ما يطيب به قلبه بعد أن يتمكن من الزواج بالوريثة الحمراء الشعر التي حلم بها؟ أم أنه يتمتع بحريته، ويحتفل بخلاصه الموفق من الزواج الذي يعتبره نوع من السجن؟

في إحدى امسيات حزيران التي كان يودعها ليسلمها إلى آب، قفزت جان فوق حجارة الجدار على الطريق وهي نازلة من التلة، ونظرت حولها كان منظر الوادي جمال مكتمل هادىء، وكأنه مسرح معد لقصة رومانسية حول الفرسان والسيدات في ثيابهم التي تعود إلى القرون الوسطى، وربما تكون حول راعية وراعي أيضاً.

خيالاتها الرومانسية قطعها صوت حذاء يصطدم بالوجه القاسي للطريق، فأحدهم قادم صعوداً إلى التل، شخص يمشي مترنحاً بخيلاء، وكان يصفّر وهو قادم.

وجمدت جان في مكانها، هل تشعر بالهذيان الذي سبّبه لها المكوث في التل طويلاً وهي تطلق العنان لمخيلتها عبثاً؟ وأحاط بها إحساس غير واقعي، وتمنت لو أنها تهرب منه بأن تركض هابطة التل إلى المنزل إلى المطبخ اللامع الجميل، وإلى حمى بيتها الوالدي.

ولكنها لم تقدر أن تتحرك، وبينما كان المصفّر يقترب أكثر، وهو يبدو ضخماً في نور الغسق، أخذ قلبها يخفق بفرح بعدما ميزت من هو، وأطلق هذا أسرها وتقدمت إلى الأمام وقالت:

- مساء الخير، هل أتيت من مكان بعيد؟

وتوقف، ورفع رأسه الى فوق بدهشة، ولمعت عيناه في وجهه النحيل الأسمر، وحدق بها، وأجاب:

- من مكان بعيد بما فيه الكفاية... هل أنت حقيقية؟

وضحكت بسعادة:

- طبعاً أنا حقيقية... إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى تيغ أوسدين.. أريد أن أرى إذا كانت البطاطا لا تزال تنمو وما إذا كانت الذرة قد نضجت.

- ولكن السرير غير نظيف، الأفضل أن تأتي الى المزرعة لقضاء الليل.

- لا، شكراً، ساكون على ما يرام.

وتوقف وحدق بها ثانية وقال:

- تستطيعين الذهاب معي إذا شئت؟

ولم تحتج جان إلى دعوة ثانية، وبينما كانت أضواء النهار تعتم والليل ينتشر فوق السماء الجنوبية والشمس تلمع في شمالي غربي الكوكب سارا معاً صاعدان الطريق دون كلام.

وفتح باب الكوخ بسهولة، وأنزل دونكان صرّته إلى الأرض. وحمل الآلة الكاتبة في حقيبتها إلى الطاولة، وهو يتلمس طريقه في العتمة، وبقيت جان بالقرب من الباب تنتظر.

وأضاء القنديل واستدار ليتطلع في الغرفة. كانت مرتبة وتشع نظافة. وهناك بساط ملون جميل أمام المدفأة التي كانت حاضرة لاشعال النار فيها. وكان المقعدين مغطيان بقماش نظيف وبالقرب من المدفأة كانون نار نحاسي أثري يلمع في ضوء القنديل.

وظهرت الدهشة على وجه دونكان واستدار لينظر إلى جان وسألها:

- ألن تدخلي؟

فأغلقت الباب وتحركت إلى الأمام لتجلس على المقعد، وقال لها:

- يبدو هذا المكان أنظف منذ أن تركته، هل كان أحد يعيش فيه؟

- كنت أعتني به لأنني اعتقدت أنك ستعود، لقد قال أندرو إن الإيجار مدفوع حتى آخر أيلول.

- لقد حاولت جهدي نسيان كل شيء ولكنني لم أقدر، فقد عاودتني في لحظات غير متوقعة، كنت أجد نفسي أتساءل ما إذا كانت البطاطا لا تزال تنمو، وإذا كان القمح قد حمل حبوباً، ومرات كنت أشعر برغبة غريبة لأرى الخروفين التوأمين اللذين ساعدت في ولادتهما، ولأعرف ما إذا كان أضعفهما قد كبر قوياً مثل الآخر، كنت أتساءل عن الناس، ماذا يفعلون، أين يذهبون.

- البطاطا في حال جيدة، والتوأم كشقيقتها، الم يصور الفيلم بعد؟

- يكاد أن ينتهي، لقد صوروه في واد آخر الى الشمال من هنا.

الم يستطع أن ينس، ولهذا عاد؟ ولماذا عاد؟ عاد إلى ساندرا؟ هل سيعيد التاريخ نفسه؟ وقال لها متسائلاً:

- هل حدث شيء في غيابي؟

- لقد تزوجت إيلين وأندرو، ونجحت في فحص جز الصوف. ولدينا تلميذ زراعة يعمل لدينا، وكان موسماً سياحياً جيداً و...

وتوقفت غير قادرة على أن تقول له عن خطبة ساندرا وكولين.

- ها قد عدنا.. تتوقفين في وسط الجملة. هيا... أخبريني.

- قد لا يعجبك ما سأقول.

- هذا ليس سبباً كي لا تقولي.

- دونكان...

- دايفد...

- لن أتمكن أبداً من مناداتك إلا باسم دونكان.

- سنناقش هذا فيما بعد.

- حسناً.. ساندرا ستتزوج كولين.

وساد صمت قصير.. وتطلعت اليه جان بقلق، ولدهشتها، كان

ينظر إليها والتعبير الساخر على وجهه، ولم يبدو عليه الكدر من الخبر.

- ولماذا قد لا أحب هذه الأنباء؟

- لقد اعتقدت... أنك بدوت... أنت وساندرا... أوه... توقف عن الضحك عليّ! لقد اعتقدت أنك تحب ساندرا، وأنك ذهبت لأن الكولونيل قال إنك لن تتزوجها.

- ولكنني لم أرد أن أتزوج منها أبداً، ولم أغادر بسببها. لقد غادرت لأنه لم يسمح بتصوير الفيلم هنا، وكان يجب أن نغير خططنا بسرعة. وعندي سببين آخرين لعودتي.

- ما هما؟

- أحدهما لانني في الكورس في الاحتفال.

- والسبب الآخر؟

- ليس من السهل قوله، فهذا يتوقف عليك.

- عليّ أنا؟

- أجل.. لقد اخبرتيني عن نهايتين سعيدتين.. هل هناك واحدة لك؟

نهايتين سعيدتين، اندرو وإيلين، كولين وساندرا، أيسألها عما إذا كانت ستتزوج؟ وحدقت به محاولة فهم ما يعني، وبدا لها جاداً وكأنه يهتم فعلاً بردها.

- أنا سعيدة الآن.

- ولماذا؟

- لأنك هنا، لأنك عدت، لأنك ستبقى على الأقل إلى نهاية أيلول.

- لقد كبرت... واجبتي على سؤالي.. السبب الأخر لعودتي الى الوادي أنني أردت أن أكون معك.. أترين.. كنت أفكر دوماً بتلك اللحظات التي قضيناها معاً. وأردت أن أحصل على المزيد من تلك اللحظات التي شعرنا فيها بالسعادة. ولهذا رجعت يا جان.. لأنني أحبك.

ـ أوه، وماذا ستفعل؟
ـ أن أطلب منك الزواج.
ـ هل أنت متأكد؟ ألن تعتقد أنك في سجن؟
ـ طالما تسمحين لي أن أسافر أحياناً.
ـ وهل أستطيع مرافقتك؟
ـ إذا رغبت، ولكنني كنت أعتقد أنك لا تستطيعين مغادرة الوادي.
ـ لقد فكرّت بهذا في غيابك، وقررت أنني أستطيع مغادرته لأجل شخص أحبه كثيراً.
ـ وهل تعرفين شخصاً تحبينه كثيراً؟
ـ أجل.. وأنا أحبك يا... دايفد.

فيما بعد، وفي وقت متأخر، عندما كانت كل النجوم تلمع في سماء الليل الصافية، سارا معاً عبر البوابة في طريقهما الى تيغانكوراش لإخبار العائلة أن زوجان في المستقبل سيستأجران المزرعة التي تدعى «تيغ اوسدين» وأنه بالرغم من أنهما غالباً ما سيكونان مسافرين بعيداً عن الوادي، فسوف يعودان دوماً إليه عندما يتعبان من السفر، للانضمام الى نمط حياتهم، وليجدوا الراحة والنشاط بين احضان الطبيعة. سيعودان لأنهما معاً ينتميان اليه.